أمين معلوف

الهويات القاتلة

«قراءات في الانتماء والعولمة»

ترجمة: د. نبيل محسن



* أمين معلوف
* الهويات القاتلة
* ترجمة: د. نبيل محسن

* الطبعة الأولى 1999
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحة الغلاف : د. أحمد معلّا
* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053

إلى أندريه

إلى رشدي

إلى طارق

إلى زياد

مقدمة

منذ أن غادرت لبنان في عام 1976 لأستقر في فرنسا، سئلت مرات عديدة، بأفضل مافي العالم من نوايا، إن كنت أشعر أولاً أنني فرنسي أو لبناني وكنت أجيب دائماً: «هذا وذاك!».

ليس من قبيل الحرص على التوازن أو المساواة، وإنما لأنني إن أجبت بشكل مختلف لكذبت. إن ما يجعلني نفسي وليس شخصاً آخر هو أنني بهذا النحو على تخوم بلدين، ولغتين أو ثلاث، والعديد من التقاليد الثقافية. هذا بالضبط مايحدد هويتي. هل أكون أكثر أصالة إن اقتطعت جزءاً من ذاتي؟

إذاً كنت أشرح بصبر، للذين يطرحون علي السؤال، أنني ولدت في لبنان وعشت فيه حتى بلغت السابعة والعشرين من العمر، وأن العربية هي لغتي الأم، وأنني اكتشفت دوماس وديكنز ورحلات جلفر في الترجمة العربية أولاً، وأنه في قريتي الجبلية، قرية أجدادي، عرفت أفراح الطفولة الأولى وسمعت بعض القصص التي سأستوحي منها فيما بعد في رواياتي. كيف يمكنني أن أنساه؟ وكيف يمكنني أن أنسلخ عنه يوماً؟ ولكنني، من جهة أخرى، أعيش على أرض فرنسا منذ اثنين وعشرين عاماً، وأشرب ماءها ونبيذها، وتلامس يداي أحجارها القديمة يومياً، وأكتب كتبي بلغتها، لذلك لن تكون أبداً أرضاً غريبة بالنسبة لي.

إذاً أنا نصف لبناني ونصف فرنسي؟ أبداً. فالهوية لاتتجزأ

أبداً، ولاتتوزع أنصافاً أو أثلاثاً أو مناطق منفصلة. أنا لاأمتلك هويات عدة، بل هوية واحدة مكونة من كل العناصر التي شكّلتْها وفق «معايرة» خاصة تختلف تماماً بين رجل وآخر.

أحياناً، عندما أنتهي من شرحٍ مفصّل، للأسباب الدقيقة التي تجعلني أتبنى كلياً مجمل انتماءاتي، يتقدم أحدهم مني ليهمس لي واضعاً يده على كتفي: «كنت محقاً إذا تحدثت على هذا النحو، لكن ما الذي تشعره في قرارة نفسك؟

جعلني هذا التساؤل الملحّ أبتسم لفترة طويلة. ولم أعد أبتسم له اليوم، إذ يبدو لي أنه يكشف عن رؤية للبشر شائعة جداً وخطيرة في نظري. عندما أسأل عما أنا إياه في قرارة نفسي فهذا يعني أن لكل إنسان قرارة نفس، انتماءً واحداً مهماً، هو حقيقته العميقة بشكل ما، جوهره، يتحدد عند الولادة مرة وإلى الأبد، ولايتغير أبداً؛ كما لو أن الباقي، كل الباقي، أي مسيرته كرجل حر، وقناعاته المكتسبة، وتفضيلاته، وحساسيته الخاصة، وميوله، وحياته كمحصلة، لاتهمّ في شيء. وعندما نحثّ معاصرينا على تأكيد هويتهم مثلما نفعل اليوم في أغلب الأحيان فما نقصده هو أن عليهم أن يجدوا في أعماقهم ذلك الانتماء الأساسي المزعوم، الذي غالباً ما يكون دينياً أو قومياً أو عرقياً أو اثنياً، ليرفعوه بفخر في وجه الآخرين.

كل من يتبنى هوية أكثر تعقيداً سيجد نفسه مهمشاً. إن شاباً يولد في فرنسا من أبوين جزائريين يحمل في داخله انتمائين بديهيين، ويجب أن يكون قادراً على الاضطلاع بكليهما. قلت انتمائين من أجل وضوح الطرح، ولكن مكونات شخصيته أكثر بكثير. سواء تعلق الأمر باللغة أو المعتقدات أو نمط العيش أو العلاقات العائلية أو الأذواق الفنية أو المأكولات فإن التأثيرات الفرنسية والأوروبية والغربية تختلط عنده بالتأثيرات العربية والبربرية والأفريقية والمسلمة... إنها تجربة غنية وخصبة إذا شعر هذا الرجل الشاب أنه حر ليحياها كلياً، وإذا شعر بتشجيع لكي

يضطلع بكل تنوعه؛ على العكس، قد يتكشّف أن مساره يسبب له الاضطراب، إذا نظر إليه البعض، كلما أكد أنه فرنسي، على أنه خائن، بل مرتد، وإذا اصطدم بعدم التفهم والحذر والعداء، كلما أعطى الأولوية لروابطه مع الجزائر وتاريخه وثقافته وديانته.

والوضع أكثر حساسية أيضاً على الضفة الأخرى للرين. أفكر بحالة تركي ولد منذ ثلاثين سنة قرب فرانكفورت وعاش دائماً في ألمانيا التي يتحدث ويكتب لغتها أفضل من آبائه. فهو ليس ألمانياً في نظر المجتمع المتبنّي، كما أنه ليس تركياً حقيقة في نظر مجتمعه الأصلي. والعقل السليم يريد أن يتمكن من الاضطلاع كلياً بهذا الانتماء المزدوج. ولكن. لاشيء في القوانين ولا في الذهنيات يسمح له اليوم أن يضطلع بشكل متناغم بهويته المركّبة.

لقد أخذتُ الأمثلة الأولى التي أتت إلى فكري. كنت أستطيع أن أذكر العديد من الأمثلة الأخرى. كمثال شخص ولد في بلغراد من أم صربية ولكن من أب كرواتي. أو مثال امرأة هوتو متزوجة من توتسي أو العكس. أو أميركي من أب أسود وأم يهودية...

قد يظن البعض أنها حالات خاصة جداً. والحق أنني لاأعتقد ذلك. فالأشخاص القلائل الذين ذكرتهم ليسوا الوحيدين الذين يمتلكون هويات مركبة. في كل رجل تتلاقى انتماءات متعددة تتعارض أحياناً فيما بينها وتجبره على خيارات ممزِّقة. بالنسبة لبعضهم، الأمر بديهي للوهلة الأولى. بالنسبة لبعضهم الآخر، يجب بذل جهد للنظر فيه عن كثب.

من الذي لايشهد، في أوروبا اليوم، تجاذباً سيتزايد حتماً بين انتمائه إلى أمة عريقة جداً كفرنسا أو إسبانيا أو الدانمارك أو انكلترا...وانتمائه إلى المجموع القاري الآخذ بالتشكل؟ وكم من الأوروبيين يشعرون أيضاً، من الباسك حتى اسكوتلندا، بانتماءٍ قوي وعميق إلى منطقة وشعبها وتاريخها ولغتها؟ من يستطيع اليوم، في الولايات المتحدة، أن يتخيل موقعه في المجتمع دون الاستناد إلى

روابطه السابقة من أفريقيّة أو إسبانيّة أو إيرلنديّة أو إيطاليّة أو بولونيّة أو غيرها؟

أما وقد قلت ذلك فأرغب حقاً بالموافقة على أن الأسئلة الأولى التي اخترتها تمتلك شيئاً خاصاً. فكلها تخص كائنات تحمل في داخلها انتماءات تتواجه اليوم بعنف؛ كائنات حدودية، بشكل ما، تخترقها الصدوع الاثنية أو الدينية أو غيرها. وبسبب هذا الوضع ذاته والذي لاأجرؤ على تسميته «مميزاً» فأمامهم دور يؤدونه لينسجوا الروابط ويزيلوا أسواء الفهم ويعقّلوا البعض ويهدئوا بعضهم الآخر ويسوّوا ويوفّقوا... قدرهم أن يكونوا صِلات وصل وعبّارات ووسطاء بين مختلف الجماعات والثقافات المتنوعة. وهذا بالضبط ما يجعل صراعهم مثقلاً بالدلالات: إن لم يكن هؤلاء الأشخاص ذاتهم قادرين على الاضطلاع بانتماءاتهم المتعددة، وإذا كانوا دائماً ملزَمين أن يختاروا فريقهم ومدعوين للعودة إلى صفوف قبائلهم يحق لنا عندئذ أن نقلق لسير العالم.

كنت أقول «ملزمين أن يختاروا»، «مدعوين»؟ مدعوون من قِبَل من؟ ليس فقط من قبل المتعصبين وكارهي الأجانب من كل حدب وصوب، وإنما من قِبَلي وقِبَلك وقِبَل كل فرد منا. وتحديداً بسبب عادات التفكير والتعبير الراسخة فينا جميعاً، وبسبب هذ المفهوم الضيّق والحصري والمتزمت والتبسيطي الذي يختزل الهوية كاملة إلى انتماء واحد يُنادى به بغضب.

«هكذا» يصنعون «السفاحين»!، هذه هي الصرخة التي أرغب بإطلاقها. إنه تأكيد مفاجئ قليلاً، أعترف بذلك، ولكني أنوي شرحه في الصفحات التالية.

I

هويتي وانتماءاتي

1

علَّمَتني حياة الكتابة أن أحذر الكلمات. فتلك التي تبدو أكثرها شفافية هي في أغلب الأحيان أكثرها خيانة. أحدُ هؤلاء الأصدقاء المزيفين هو بالتحديد كلمة «هوية». فجميعنا نعتقد معرفة ما تعنيه هذه الكلمة ونستمر بالثقة بها حتى عندما تبدأ هي بقول العكس بمكر.

ليس في نيتي أن أعيد تعريف فكرة الهوية تكراراً. فهي المسألة الأساسية للفلسفة منذ قال سقراط إعرف نفسك بنفسك وصولاً إلى فرويد ومروراً بالعديد من المعلمين الآخرين. ومن أجل تناولها من جديد في أيامنا يتطلب الأمر كفاءة أكثر مما أمتلك وكذلك المزيد من الجسارة. إن المهمة التي آخذها على عاتقي أكثر تواضعاً من ذلك بكثير، وهي محاولة فهم لماذا يرتكب العديد من الأشخاص اليوم جرائمهم باسم هويتهم الدينية أو الاثنية أو القومية أو غيرها. وهل كان الأمر على هذا النحو منذ فجر العصور، أم أن هناك حقائق خاصة بعصرنا؟ قد تبدو طروحاتي أحياناً بدائية جداً. وذلك لأنني أريد أن أوجِّه تفكيري بأكثر ما يمكن من الهدوء والصبر والأمانة الممكنة دون العودة إلى أي نوع من الأفكار المسبقة أو أي اختزال خادع.

يوجد على ما يسمى اصطلاحاً «بطاقة الهوية» الشهرة والاسم

ومكان وتاريخ الولادة وصورة وتعداد لبعض الصفات الجسدية وتوقيع وأحياناً بصمة الشخص. وهي مجموعة كاملة من البيانات للدلالة دون لبس ممكن على أن حامل هذه الوثيقة هو فلان، وأنه لايوجد بين مليارات الناس الآخرين شخص واحد يؤخذ خطأً على أنه هو حتى لو كان بديله أو أخاه التوأم.

هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص آخر.

بتحديدها على هذا الشكل تصبح كلمة هوية مفهوماً دقيقاً إلى حد ما ولايؤدي إلى أي لبس. هل نحن حقاً بحاجة إلى براهين طويلة لإثبات أنه لايوجد ولايمكن أن يوجد كائنان متماثلان؟ وحتى لو توصلنا غداً، كما يُخشى، إلى نَسخ كائنات إنسانية، فلن تكون هذه النُسخ متشابهة إلا لحظة ولادتها في أحسن الأحوال، إذ تصبح مختلفة منذ أنفاسها الأولى.

تتشكل هوية كل شخص من جمهرة من العناصر لاتقتصر بالطبع على تلك المدوّنة على السجلات الرسمية. هناك بالتأكيد، بالنسبة للغالبية العظمى من الناس، الانتماء إلى تقليد ديني وإلى جنسية، وأحياناً جنسيتين، وإلى مجموعة اثنية أو لغوية، وإلى عائلة أكثر أو أقل اتساعاً، وإلى مهنة ومؤسسة ووسط اجتماعي ما. ولكن القائمة أطول من ذلك أيضاً، ويفترض أنها غير محدودة. إذ نستطيع أن نستشعر بانتماء أكثر أو أقل قوة إلى ريف أو قرية أو حي أو عشيرة أو فريق رياضي أو مهني أو إلى جماعة من الأصدقاء، إلى نقابة أو شركة أو حزب أو رابطة أو رعية أو جماعة من الأشخاص يمتلكون الأهواء ذاتها أو الميول الجنسية ذاتها أو العاهات الجسدية ذاتها أو الذين واجهوا الأذيّات ذاتها.

بالتأكيد ليس لكل هذه الانتماءات الأهمية ذاتها، على أية حال ليس في الوقت ذاته. ولكن أياً منها ليس خالياً من المعنى تماماً. إنها العناصر المكونة للشخصية، ونستطيع تقريباً أن نقول إنها «مورّثات» شرط أن نوضح أن معظمها ليس فطرياً.

إذا كان من الممكن مصادفة كلٍّ من هذه العناصر عند عدد كبير من الأشخاص، فإننا لن نجد أبداً التركيبة ذاتها عند شخصين مختلفين. وهذا بالضبط ما يصنع غنى كل فرد وقيمته الخاصة، وهذا مايجعل من كل فرد كائناً فريداً وغير قابل للاستبدال.

يحدث أحياناً أن يؤثر حدث سعيد أو حزين، أو لقاء عارض على إحساسنا بالهوية، أكثر من انتمائنا إلى موروث ألْفي. فلنتخيل حالة صربي ومسلمة تعارفا منذ عشرين عاماً في مقهى في سراييفو وتحابا ثم تزوجا. لن يكون لديهما أبداً تصور مماثل عن هويتهما كما هو عند زوجين صربيين أو مسلمين تماماً. لن تكون رؤيتهما للعقيدة وكذلك للوطن هي ذاتها. سيحمل كل منهما في نفسه دائماً الانتماءات التي منحه إياها والداه عند ولادته، ولكنه لن يدركها بالطريقة ذاتها ولن يمنحها المكانة ذاتها.

ولن نغادر سراييفو بل سنبقى فيها بفكرنا للقيام باستقصاء خيالي. لنراقب في الشارع رجلاً في الخمسين من عمره.

حوالى عام 1980 كان هذا الرجل سيعلن بكل فخر ودون أي ارتباك: «أنا يوغسلافي». وإذا سُئل عن قرب لأوضح أنه يسكن في جمهورية البوسنة والهرسك المتحدة وأنه، للمصادفة، يتحدر من عائلة مسلمة.

وإذا صادفْنا الرجل ذاته بعد اثني عشر عاماً والحرب في أوجها لأجاب بشكل عفوي وبكل قوة: «أنا مسلم». وربما ترك لحيته تنمو وفقاً للشريعة، وربما أضاف فوراً أنه بوسني. وما كان سيحبذ مطلقاً أن نذكّره بأنه كان يؤكّد بكل فخر انتماءه اليوغسلافي.

واليوم، إذا سُئل رجلنا في الشارع، فسيعتبر نفسه بوسنياً أولاً ثم مسلماً وسيضيف بأنه يذهب إلى الجامع بانتظام. ولكنه سيؤكد

أيضاً أن بلده تشكل جزءاً من أوروبا ويأمل أن يراه يوماً ما منتسباً إلى الاتحاد الأوروبي.

وإذا وجدنا الشخص ذاته في المكان ذاته بعد عشرين عاماً، فكيف سيعرِّف نفسه؟ أيٌّ من انتماءاته سيضع في المقدمة؟ أوروبي؟ مسلم؟ بوسني؟ شيء آخر؟ بلقاني ربما؟

لن أجازف بالقيام بتكهنات. كل هذه العناصر تشكل فعلياً جزءاً من هويته. لقد ولد هذا الرجل في عائلة ذات تقليد إسلامي وينتمي بلغته إلى سلافيي الجنوب الذين كانوا متحدين في إطار دولة واحدة ولم يعودوا كذلك اليوم، وهو يحيا على أرض كانت تارة عثمانية، وتارة نمساوية، ونالت حصتها من مآسي التاريخ الأوروبي الكبرى. في كل عصر تضخم واحدٌ من انتماءاته، إذا جاز لي القول، لدرجة أنه يخفي كل الانتماءات الأخرى ويمتزج مع هويته كاملة. ربما رووا له أثناء حياته كل أنواع الحكايا، وبأنه بروليتاري ليس إلا، وبأنه يوغسلافي ليس إلا، وحديثاً بأنه مسلم ليس إلا، وربما أوهموه، أثناء بعض الشهور العصيبة، بأن هناك أموراً مشتركة بينه وبين رجال كابول أكثر مما هو مع رجال تريسته.

يوجد في كل العصور أناس يعتبرون أن هناك انتماءً واحداً مسيطراً، يفوق كل الانتماءات الأخرى وفي كل الظروف، إلى درجة أنه يحق لنا أن ندعوه «هوية». هذا الانتماء هو الوطن بالنسبة لبعضهم والدين بالنسبة لبعضهم الآخر. ولكن يكفي أن نجول بنظرنا على مختلف الصراعات التي تدور حول العالم لنتنبه إلى أن أي انتماء لايسود بشكل مطلق. فحيث يشعر الناس أنهم مهددون في عقيدتهم يبدو أن الانتماء الديني هو الذي يختزل هويتهم كلها. ولكن لو كانت لغتهم الأم ومجموعتهم الاثنية هي المهددة لقاتلوا بعنف ضد أخوتهم في الدين. فالأتراك والأكراد كلاهما مسلم ولكنهما

يختلفان في اللغة. ألا يدور بينهما صراع دموي؟ والهوتو كالتوتسي، كلاهما كاثوليكي، ويتكلمان اللغة ذاتها. هل منعهما ذلك من التذابح؟ وكذلك التشيكيون واليوغسلافيون كاثوليكيون أيضاً، فهل سهّل ذلك العيش المشترك؟

أسوق كل هذه الأمثلة لأشدّد على حقيقة أنه في حال وجود نوع من التراتبية بين العناصر التي تشكل هوية كل فرد، فهي ليست ثابتة، بل تتغير مع الزمن وتغيّر التصرفات بعمق.

إن الانتماءات المهمة في حياة كل فرد ليست دائماً تلك التي تُعرف بأنها مسيطرة، والتي تتعلق باللغة والبشرة والجنسية والطبقة والدين. فلنأخذ مثالاً لوطياً إيطالياً أثناء زمن الفاشية. أتخيل أن أهمية هذا المظهر الخاص بشخصيته بالنسبة إليه لاتفوق ما لنشاطه المهني وخياراته السياسية أو معتقداته الدينية من أهمية. وفجأة يحل به قمع السلطة ويشعر أنه مهدد بالإهانة والنفي والموت. باختيار هذا المثال أشير بالطبع إلى بعض التذكّرات الأدبية والسينمائية. إذاً، فهذا الرجل الذي كان لسنوات خلت وطنياً، وربما قومياً، لم يعد يستطيع أن يبتهج وهو يرى عرض الفرق العسكرية الايطالية، ومن المؤكد أن الأمر قد وصل به إلى حد تمني هزيمتها. وبسبب الاضطهاد ستتقدم ميوله الجنسية على ميوله الأخرى حاجبةً حتى الانتماء الوطني الذي بلغ في ذلك الوقت أوجه. ولم يشعر رجلنا أنه إيطالي بحق إلا بعد الحرب، في إيطاليا الأكثر تسامحاً.

وفجأة ترتسم الهوية التي ننادي بها، سلبياً، على هوية الخصم. فالإيرلندي الكاثوليكي يختلف عن الانكليزي بديانته أولاً، ولكنه يؤكد في مواجهة العرش أنه جمهوري. وإذا كان لايجيد الغاليّة بشكل كافٍ فسيتحدث الانكليزية على طريقته، حتى أن زعيماً كاثوليكياً يتحدث بلهجة أوكسفورد يبدو كأنه خائن تقريباً.

يوجد هنا أيضاً عشرات الأمثلة التي تصور تعقيد آليات الهوية.

هذا التعقيد الذي يدعو إلى الابتسام أحياناً، ويكون تراجيدياً في أغلب الأحيان. وسأذكر العديد منها على مدى الصفحات التالية، بعضها بشكل موجز وبعضها بمزيد من التفصيل، خاصة تلك التي تخص المنطقة التي أتيت منها أي الشرق الأوسط والمتوسط والعالم العربي ولبنان بالدرجة الأولى. وهو بلد نُقاد فيه باستمرار إلى التساؤل عن انتماءاتنا وأصولنا وعلاقاتنا مع الآخرين، وعن المكانة التي نستطيع أن نحتلها في الظل أو تحت الشمس.

2

يحدث لي أحياناً أن أقوم بما أدعوه «تفحص هويتي»، مثلما يقوم بعضهم الآخر بتفحص ضمائرهم. وربما فهمنا أنني لاأهدف لأن أعثر في ذاتي على انتماءٍ أساسي أتعرف إلى نفسي من خلاله، بل إنني أتبنى الموقف المعاكس. فأنا أبحث في ذاكرتي لأكشف عن أكبر عدد من عناصر هويتي وأجمعها وأرتبها ولا أنكر أياً منها.

أتحدر من عائلة أصلها في الجنوب العربي، استوطنت في الجبل اللبناني منذ قرون، وانتشرت مذّاك بهجرات متتابعة في مختلف أنحاء الكرة الأرضية، من القاهرة إلى البرازيل ومن كوبا إلى استراليا. وهي تفخر بأنها كانت دائماً عربية ومسيحية معاً، على الأرجح منذ القرن الثاني أو الثالث، أي قبل بزوغ الإسلام بكثير، وحتى قبل أن يتحول الغرب إلى المسيحية.

أن أكون مسيحياً وأن تكون لغتي الأم اللغة العربية، لغة الإسلام المقدسة، أحد التناقضات الأساسية التي شكلت هويتي. فالتحدث بهذه اللغة ينسج لي روابط مع كل الذين يستخدمونها يومياً في صلواتهم، ومعظمهم يعرفها أقل مما أعرفها أنا. عندما نكون في آسيا الوسطى ونصادف علّامة عجوز على عتبة مدرسة تيمورية يكفي أن نتوجه إليه بالعربية ليشعر بالطمأنينة ويتحدث من قلبه مثلما لن يجازف أبداً بفعله بالروسية أو الانكليزية.

فهذه اللغة مشتركة بيننا، أنا وهو وأكثر من مليار شخص آخر. أضف إلى أن انتمائي إلى المسيحية، سواء كان دينياً بعمق أو سوسيولوجياً فقط، والمسألة ليست هنا، يخلق بدوره رباطاً هاماً بيني وبين ملياري مسيحي في العالم. هناك الكثير من الأشياء التي تفصلني عن كل مسيحي، وكذلك عن كل عربي وكل مسلم، ولكن هناك أيضاً مع كل منهم قرابة لايمكن إنكارها، وهي دينية وفكرية في الحالة الأولى، ولغوية وثقافية في الأخرى.

وهذا يعني أن كوني عربياً ومسيحياً معاً هو وضع شديد الخصوصية، أقلّي جداً، وليس من السهل الاضطلاع به دائماً، إذ يطبع الشخص بعمق ولفترة طويلة. وفيما يخصني لاأنكر أنه كان حاسماً في معظم القرارات التي كان علي اتخاذها أثناء حياتي، بما فيها كتابة هذا الكتاب.

هكذا بمقاربة هذين العنصرين من هويتي، كل على حدة، أشعر أنني قريب من قسم كبير من الإنسانية، وإذا أخذت هذين المعيارين ذاتيهما معاً أجد نفسي أمام خصوصيتي.

أستطيع تكرار المعاينة ذاتها مع انتماءات أخرى. فواقع أنني فرنسي يشاركني إياه ستون مليون شخص. وواقع أنني لبناني يشاركني إياه ثمانية ملايين شخص، بمن فيها لبنانيو الاغتراب؛ ولكن أن أكون في الوقت عينه فرنسياً ولبنانياً فهو أمر لايشاطرني إياه إلا بضعة آلاف على الأكثر.

كلٌ من انتماءاتي يربطني بعدد كبير من الأشخاص. ومع ذلك كلما كانت الانتماءات التي آخذها بعين الاعتبار عديدة تأكدت خصوصية هويتي أكثر.

وإذا استرسلت أكثر قليلاً فيما يتعلق بأصولي فيجب أن أوضح بأنني ولدت في وسط طائفة الروم الكاثوليك أو المَلْكيين، وهي تعترف بسلطة البابا مع بقائها مخلصة لبعض الطقوس البيزنطية. قد يبدو هذا الانتماء عن بعد تفصيلاً أو فضولاً ولكنه عن قرب يبدو

مظهراً حاسماً من مظاهر هويتي. في بلد كلبنان تقاتلت فيه أقوى الطوائف لفترة طويلة من أجل أرضها وحصتها من السلطة، نادراً ما حمل أعضاء الطوائف الأقلية كجماعتي السلاح وكانوا أول من هاجر. أما فيما يخصني فقد رفضت دائماً أن أتورط في هذه الحرب التي أعتبرها عبثية أو انتحارية؛ ولكن هذا الحكم وهذه النظرة المتحفظة ورفض حمل السلاح لاتنفصل عن كوني أنتمي إلى طائفة مهمَّشة.

فأنا مَلْكيّ إذاً. ومع ذلك إذا تسلّى أحدهم يوماً بالبحث عن اسمي في سجلات النفوس، الموزعة في لبنان بلا شك حسب الانتماء الديني فلن يجدني مذكوراً عند المَلْكيين بل في سجلات البروتستانت. لأي سبب؟ هذا أمر يطول شرحه. وسأكتفي بالقول بأنه كان يوجد في عائلتنا تقليدان دينيان متخاصمان وبأنني كنت أثناء كل طفولتي شاهداً على هذه التجاذبات، وأحياناً موضع رهان: إذ التحقت بالمدرسة الفرنسية، مدرسة الآباء اليسوعيين، لأن أمي الكاثوليكية المتشدّدة تحرص على إبعادي عن التأثير البروتستانتي المسيطر آنذاك في عائلة أبي، حيث يوجهون الأطفال بشكل تقليدي نحو المدارس الأميركية أو الانكليزية. وقد أصبحت فرانكوفونياً بسبب هذا الصراع. ونتيجة لذلك أتيت لأستقر، أثناء الحرب في لبنان، في باريس، وليس في نيويورك أو فانكوفر أو لندن، وبدأت الكتابة بالفرنسية.

هل أعرض أيضاً تفاصيل أخرى عن هويتي؟ هل أتحدث عن جدتي التركية وزوجها الماروني المصري، وذلك الجد الآخر الذي توفي قبل ولادتي بكثير، والذي يقولون لي بأنه كان شاعراً ومفكراً حراً، وربما ماسونياً، وعلى أي حال شديد العداء لرجال الدين؟ هل أرجع إلى شقيق جد جدي الذي كان أول من ترجم موليير إلى العربية وعَرَضه في عام 1848 على منصّات مسرح عثماني؟

كلا، فهذا يكفي. أتوقف هنا لأسأل؟ كم هو عدد أمثالي الذين

يشاطرونني هذه العناصر المتفرقة التي شكلت هويتي وصمّمتْها؟ قلة صغيرة، وربما لا أحد. وبالتأكيد هذا ما أريد أن أشدد عليه: فبفضل كل من هذه الانتماءات، إذا أُخذت بشكل منفصل، يوجد نوع من القرابة يصلني بعدد كبير من أمثالي؛ وبفضل هذه المعايير ذاتها، مأخوذة بمجملها، أمتلك هويتي الخاصة التي لاتختلط مع أية هوية أخرى.

وإذا عمّمت بصعوبة أقول بأن لي انتماءات مشتركة مع كل كائن حي، ولكن لايوجد كائن في الكون يشاطرني كل انتماءاتي ولا حتى جزءاً كبيراً منها. من عشرات المعايير التي يمكنني أن أعرضها تكفي حفنة منها لتثبيت هويتي الخاصة بوضوح، هويتي المختلفة عن هوية الآخر، وحتى لو كان ابني أو والدي.

ترددت طويلاً قبل أن أنطلق في كتابة الصفحات السابقة. هل كان ينبغي أن أتوسع على هذا النحو منذ بداية الكتاب فيما يتعلق بحالتي الخاصة.

أُصِرُّ من جهة على أن أقول، باستخدام أقرب مثال مألوف لدي، بأية طريقة، ومع أي معايير انتماء، يمكن أن نؤكد خصوصياتنا وروابطنا مع أمثالنا. ولا أجهل، من جهة أخرى، أنه كلما أمعنا بتحليل حالة خاصة جازفنا بأن نرى أنفسنا نجيب بأنها بالفعل حالة خاصة.

وأخيراً رميت بنفسي في الماء مقتنعاً بأن كل إنسان طيب النية ويسعى إلى القيام بالتفحص الخاص لهويته لن يتأخر عن اكتشاف أنها حالة خاصة مثلما حدث معي. فالإنسانية كلها تتشكل من حالات خاصة، والحياة تخلق الاختلافات، وأما التكاثر فهو ليس للتماثل أبداً. كل شخص، دون أي استثناء، يتمتع بهوية مركّبة ويكفيه أن يطرح بضعة أسئلة ليستخرج كسوراً منسية وتشعبات لاشك فيها وليكتشف أنه مركّب وفريد ولايُستبدل.

هذا هو بالضبط مايشكل هوية كل فرد. فهو مركّب وفريد ولايُستبدل ولا يمكن الخلط بينه وبين أي شخص آخر. وإذ أشدد على هذه النقطة فذلك بسبب هذه الطريقة في التفكير، التي مازالت منتشرة، والخبيثة جداً في نظري، والتي علينا وفقاً لها أن نقول ببساطة من أجل تأكيد هويتنا: «أنا عربي»، «أنا فرنسي»، «أنا زنجي»، «أنا صربي»، «أنا مسلم»، «أنا يهودي». وذاك الذي يعدد، كما فعلت، انتماءاته المتعددة يُتهم فوراً بأنه يريد تذويب هويته في حساء عديم الشكل فيه كل الألوان. ومع ذلك فأنا أسعى لقول العكس، إن كل الناس ليسوا متماثلين بل إن كلاً منهم مختلف. بالتأكيد يختلف الصربي عن الكرواتي ولكن كل صربي يختلف أيضاً عن أي صربي آخر وكل كرواتي يختلف عن أي كرواتي آخر. إذا كان هناك مسيحي لبناني يختلف عن مسلم لبناني، فأنا لاأعرف مسيحيين متماثلين، مثلما لايوجد في العالم فرنسيان أو أفريقيان أو عربيان أو يهوديان متماثلان. لايمكن لفرد أن يحل مكان الآخر، من الشائع أن نجد في كنف العائلة الرواندية أو الإيرلندية أو اللبنانية أو الجزائرية ذاتها، بين أخين عاشا في المحيط ذاته، اختلافات ضئيلة في الظاهر، ولكنها تجعلهما يرتكسان فيما يتعلق بالسياسة أو الدين أو الحياة اليومية على طرفي نقيض. وربما تجعل من أحدهما قاتلاً ومن الآخر رجل حوار ووفاق.

قلة من الناس سيعترضون بصراحة على كل ما ذكرته للتو. ولكننا نتصرف وكأن الأمر غير ذلك. تسهيلاً للأمر نجمع الناس الأكثر اختلافاً تحت الاسم ذاته، وتسهيلاً للأمر نعزو لهم أيضاً جرائم وأفعالاً جماعية وآراء جماعية: «لقد ذبح الصرب...»، «لقد هدم الانكليز...»، «صادر اليهود...»، «أحرق السود...»، «يرفض العرب...». ودون أي اضطراب نطلق الأحكام على هذا الشعب أو ذاك، فهو «شغيل» أو «ماهر» أو «كسول» أو «حساس» أو «ماكر» أو «متكبر» أو «عنيد» وهذا مايؤدي أحياناً إلى إراقة الدم.

أعلم أنه من غير المنطقي أن نتوقع من كل معاصرينا أن يغيّروا بين ليلة وضحاها عاداتهم في التعبير. ولكن يبدو لي مهماً أن يعي كل منا واقع أن طروحاته ليست بريئة وتساهم في أحكام مسبقة اتضح على مر التاريخ أنها منحرفة وقاتلة.

إن نظرتنا هي التي تحتجز الآخرين في انتماءاتهم الأضيق في أغلب الأحيان، ونظرتنا هي القادرة على تحريرهم أيضاً.

3

لاتُعطى الهوية مرة وإلى الأبد، فهي تتشكل وتتحول على طول الوجود. ورغم وجود العديد من الكتب التي سبق أن تحدثت عن الأمر وشرحته بإسهاب، فلا ضرر من الإشارة أيضاً إلى أن عناصر هويتنا التي توجد فينا عند الولادة ليست كثيرة، فهي بعض الخصائص الجسدية والجنس واللون... وحتى هنا فليس كل شيء فطرياً. ورغم أنه من غير البديهي أن يحدد المحيط الاجتماعي الجنس، إلّا أنه هو الذي يحدد معنى هذا الانتماء. أن تولد الفتاة في كابول أو أوسلو ليس له المعنى ذاته، فهي لاتحيا أنوثتها بالطريقة ذاتها، ولا أي عنصر آخر من هويتها.

ويمكن إبداء ملاحظة مشابهة فيما يتعلق باللون. إن ولادة زنجي في نيويورك أو لاغوس أو بريتوريا أو لاواندا ليس له المعنى ذاته، يمكننا تقريباً أن نقول إنه ليس اللون ذاته من وجهة نظر الهوية. إن العامل الذي يحدد هوية طفل يولد في نيجيريا هو كونه يوروبا أو هاوسا وليس كونه أسود أو أبيض. أما في افريقيا الجنوبية فكون المرء أسود أو أبيض يبقى عاملاً هاماً في الهوية ولكن الانتماء الاثني إلى الزولو أو الكزوسا لا يقل أهمية. أما في الولايات المتحدة الأميركية فإن تحدّر المرء من جدٍّ يوروبا أو هاوسا فلا أهمية له؛ فالأصل العرقي هو المحدد للهوية عند البيض خاصة، سواء كانوا إيطاليين أو انكليزاً أو إيرلنديين أو غيرهم.

[illegible] الشخص الذي يوجد بين أجداده بيض وسود في آن واحد [illegible] في الولايات المتحدة الأميركية من السود، في حين [illegible] خلاسياً في أفريقيا الجنوبية أو في أنغولا.

لماذا يؤخذ مفهوم التهجين بعين الاعتبار في بعض الدول ويهمل في بعضها الآخر؟ لماذا يكون الانتماء العرقي حاسماً في بعض المجتمعات دون بعضها الآخر؟ يمكن أن نقدّم لكل حالة تفسيرات متنوعة أكثر أو أقل إقناعاً. ولكن ليس هذا ما يشغلني في هذه المرحلة. لقد ذكرت هذه الأمثلة فقط لأشدد على حقيقة أنه حتى اللون والجنس ليسا عنصرين «مطلقين» من عناصر الهوية... وللسبب ذاته تبقى كل العناصر الأخرى أكثر نسبية أيضاً.

من أجل أن نقيس ما هو حقيقةً فطري بين عناصر الهوية توجد لعبة ذهنية كاشفة للغاية: تخيلوا أننا نعزل رضيعاً عن محيطه لحظة ولادته لنضعه في محيط مختلف، وقارنوا عندئذ بين الهويات المتنوعة التي يمكنه أن يكتسبها، والمعارك التي سيكون عليه أن يخوضها وتلك التي ستوفَّر عليه... هل من الضروري أن نوضح بأنه لن يتذكر شيئاً عن ديانته الأصلية ولا عن «أمته»، و«لغته» وأنه قد يجد نفسه يحارب بضراوة من كان يجب أن يكونوا أهله.

كم هو حقيقي أن مايحدد انتماء شخص إلى مجموعة ما هو تأثير الآخرين بشكل أساسي؛ أي القريبين منه، كأهله ومواطنيه وأخوته في الدين الذين يسعون إلى تملكه، وتأثير الذين في المواجهة والذين يعملون على إقصائه. على كل منا أن يشق طريقه بين الطرق التي يُدفع فيها، أو تلك الممنوعة عليه أو التي تُزرع بالأفخاخ تحت قدميه. فهو ليس ذاته دفعة واحدة ولايكفي بأن «يعي» ماهو عليه، إنه يصبح ما هو عليه؛ لايكتفي بأن «يعي» هويته، إنه يكتسبها خطوة فخطوة.

يبدأ التدرب باكراً جداً، منذ الطفولة الأولى. إذ يقوم الأهل عن قصد أو غير قصد بتشكيل الطفل وتكوينه وترسيخه بالمعتقدات العائلية والطقوس والمواقف والأعراف واللغة الأم بالتأكيد، ثم

بالمخاوف والتطلعات والأحكام المسبقة والأحقاد، وكذلك بمختلف مشاعر الانتماء أو اللاانتماء.

وباكراً جداً أيضاً، في المنزل كما في المدرسة أو الشارع المجاور، تحدث الاحتكاكات الأولى. يُشعره الآخرون بكلماتهم ونظراتهم بأنه فقير أو أعرج أو قصير القامة أو طويل، أو أسمر أو شديد الشقرة، أو مختون أو غير مختون أو يتيم. إن هذه الاختلافات العديدة الهامة أو البسيطة التي ترسم ملامح كل شخصية ،تشكل تصرفاتها وآراءها ومخاوفها وطموحاتها التي يظهر دورها المكوِّن جلياً في أغلب الأحيان، ولكنها تجرح أحياناً إلى الأبد.

إن هذه الجروح هي التي تحدد في كل مرحلة من مراحل الحياة موقف البشر تجاه انتماءاتهم، والتراتبية ما بينها. عندما يُضطهد المرء بسبب ديانته وعندما يتعرض للإهانة أو السخرية بسبب بشَرته أو لهجته أو ثيابه المرقعة فهو لن ينسى ذلك. لقد شدَّدْت باستمرار حتى الآن على حقيقة أن الهوية تتشكل من انتماءات متعددة. ولكن من الضروري أن نشدد بالقدْر ذاته على حقيقة أنها واحدة، وأننا نعيشها بوصفها كلاً متكاملاً. ليست هوية الشخص تراكماً لانتماءات تلقائية، ليست «رقعاً»، إنها رسم على بشرة مشدودة. ويكفي المساس بانتماء واحد لكي ينتفض الشخص بكلّيته.

من جهة أخرى، نميل في أغلب الأحيان لأن نتعرف على أنفسنا في انتمائنا الأكثر عرضة للخطر. أحياناً نشعر بعجزنا عن الدفاع عنه، فنواريه، ويبقى في أعماقنا مطوياً في الظل، بانتظار أن يثأر؛ ولكن سواء اضطلعنا به أو خبأناه، سواء أعلنّاه سراً أو بكثير من الضجة، فإننا نتماهى معه. عندها، يجتاحُ الانتماء المتهم، أي اللون أو الدين أو اللغة أو الطبقة، الهويةَ كاملةً. يشعر الذين يتشاطرونه بالتعاضد فيتجمعون ويتجندون ويتبادلون التشجيع ويهاجمون الذين في المواجهة. بالنسبة لهم يصبح «تأكيد هويتهم»، اضطراراً، عملاً شجاعاً وعملاً محرِراً.

وبشكل طبيعي يبرز في قلب كل مجموعة مجروحة قادة. وسواء كانوا ساخطين أو مخططين يحافظون على طروحاتهم المتطرفة التي تضع المرهم على الجروح. يقولون إنه يجب عدم استجداء الاحترام من الآخرين، لأنه حق مكتسب، بل يجب فرضه عليهم. يعدون بالنصر أو الثأر ويلهبون النفوس ويستخدمون أحياناً وسائل متطرفة حَلم بها سراً بعض أخوتهم المسحوقين. لقد أعدَّت العدة ويمكن للحرب أن تبدأ. ومهما حصل فالآخرون يستحقونه، مازلنا نذكر بدقة كل ما أذاقونا إياه منذ فجر الأزمنة، كل الجرائم والتعديات والإهانات والمخاوف والأسماء والتواريخ والأرقام.

لأنني عشت في بلد في حالة حرب، وفي حيٍّ يتعرض للقصف من حيٍّ مجاور، ولأنني أمضيت ليلة أو اثنتين في قبو تحول إلى ملجأ مع زوجتي الشابة الحامل وطفلي الصغير، بينما أصوات الانفجارات في الخارج، وفي الداخل ألف شائعة عن هجوم وشيك، وكذلك ألف قصة عن عائلة ذبحت، أعرف تماماً أن الخوف يستطيع أن يدفع أيٍ شخص كان إلى الجريمة. لو حدث في حيي مذبحة حقيقية بدلاً عن الشائعات الكاذبة هل كنت حافظت على برودة دمي لفترة طويلة؟ ولو أني أمضيتُ شهراً في ذلك الملجأ بدلاً من يومين هل كنت سأرفض حمل السلاح الذي سيضعونه بين يدي؟

أفضّل عدم طرح هذه الأسئلة على نفسي بكثير من الإلحاح. كان من حسن حظي أني لم أُختبر بقسوة، وكان من حسن حظي أني خرجت باكراً جداً من الأتون مع أهلي سليمين، وكان من حسن حظي أني حافظت على نظافة يدي وضميري شفافاً. وأقول «حظ» لأن الأمور كان يمكن أن تجري بشكل مختلف تماماً، لو أنني كنت في السادسة عشرة من عمري في بداية الحرب في لبنان بدلاً من السادسة والعشرين، أو لو أنني خسرت شخصاً عزيزاً علي، أو لو أنني انتميت إلى وسط اجتماعي آخر أو طائفة أخرى...

بعد كل مذبحة اثنية جديدة، نتساءل بحق، كيف يصل الأمر

بكائنات إنسانية إلى حد ارتكاب مثل هذا الفظاعات. تبدو لنا بعض الانفلاتات غير مفهومة ويبدو منطقها عويصاً. فنتحدث عندها عن الجنون القاتل والجنون الدموي والسلفي والمتوارث. بمعنى ما هناك جنون. إذ عندما يتحول رجل سليم العقل بين ليلة وضحاها إلى قاتل، فهناك جنون بالتأكيد. ولكن عندما يوجد آلاف وملايين القتلة، وتتكرر الظاهرة من بلد إلى آخر، في قلب ثقافات مختلفة، عند أتباع جميع الديانات مثلما عند الذين لايدينون بأيّ منها، فلا يكفي أن نقول «جنون». ماندعوه تساهلاً «جنونٌ قاتل» هو تلك النزعة عند أمثالنا لأن يتحولوا إلى جزارين عندما يشعرون أن «قبيلتهم» مهدَّدة. إن شعور الخوف أو التوجس لايخضع دائماً للاعتبارات العقلانية، إذ يحدث أن يكون مبالغاً فيه وحتى زَوَرياً؛ ولكن منذ اللحظة التي تشعر فيها مجموعة سكانية بالخوف، تصبح حقيقة الخوف هي مايجب أخذه بعين الاعتبار وليس حقيقة التهديد.

لاأظن أن هذا أو ذاك الانتماء الاثني أو الديني أو القومي يؤهب للقتل. يكفي أن نراجع أحداث هذه السنوات الأخيرة لنتبين أن كل جماعة إنسانية مهما كان شعورها بالاضطهاد أو بالخطر ضئيلاً ستميل إلى إنتاج قَتَلة يرتكبون أسوأ الفظاعات، مقتنعين أنهم على حق وأنهم يستحقون السماء وإعجاب أقربائهم. يقبع السيد «هايد» في داخل كل منا والمهم أن نمنع اجتماع الشروط التي توقظ الوحش.

لن أجازف في تقديم شرح شامل لكل المذابح ولا في اقتراح دواء معجزة. فأنا لاأؤمن بالحلول التبسيطية مثلما لا أؤمن بالهويات التبسيطية. فالكون آلة معقدة لايمكن تفكيكها بمفك البراغي. ولكن هذا يجب ألّا يمنعنا من المراقبة والسعي لأن نفهم ونفكر ونناقش ونقترح أحياناً هذه الطريقة أو تلك في التفكير.

يمكن صياغة ما يمتد كخيط دقيق بين دفّتي هذا الكتاب على الشكل التالي: إذا كان البشر في كل الدول وكل الظروف وكل

المعتقدات يتحولون بهذه السهولة إلى قتلة، وإذا كان المتعصبون من أي جنس قادرين بهذه السهولة على فرض أنفسهم بوصفهم المدافعين عن الهوية، فذلك لأن مفهوم الهوية القبائلي الذي مازال سائداً في العالم كله هو الذي يهيء لمثل هذا الانحراف. إنه مفهوم موروث من صراعات الماضي التي سيرفضها كثيرون منا إذا تفحصوها عن كثب، ولكننا نستمر بالانتماء إليها بفعل العادة وقلة المخيلة أو بالانقياد، فنساهم هكذا لاإرادياً بالمآسي التي ستثير غداً اضطرابنا بشكل حقيقي.

4

أتحدث منذ بداية هذا الكتاب عن هويات قاتلة. ولايبدو لي أن هذه التسمية مبالغ فيها، ذلك لأن المفهوم الذي أفضحه، والذي يختزل الهوية إلى انتماء واحد، يضع الرجال في موقف متحيز ومذهبي ومتعصب ومتسلط، وأحياناً انتحاري، ويحولهم في أغلب الأحيان إلى قتلة أو إلى أنصار للقتلة. إن رؤيتهم للعالم مواربة ومشوهة. فالذين ينتمون إلى جماعتنا ذاتها هم أهلنا الذين نتضامن مع مصيرهم، ولكننا نسمح لأنفسنا في الوقت ذاته بأن نكون طغاة تجاههم؛ وإذا بدوا لنا فاترين نتنكر لهم ونُرهبهم ونُعاقبهم بوصفهم خونة ومارقين.أما بالنسبة للآخرين، الموجودين على الضفة الأخرى، فلا نسعى أبداً لأن نضع أنفسنا مكانهم، نمتنع عن التساؤل عما إذا كانوا غير مخطئين تماماً حول هذه المسألة أو تلك، ولانسمح لأنفسنا أن تهدأ بشكاواهم وآلامهم والمظالم التي كانوا ضحيتها. ما يهم هو وجهة نظر جماعتنا فقط، التي غالباً ماتكون وجهة نظر أكثر الناس تشدداً في الجماعة، وأكثرهم ديماغوجيةً وسخطاً.

وبالعكس ما أن نتصور هويتنا بوصفها مكوَّنة من انتماءات متعددة، بعضها يرتبط بتاريخ اثني وبعضها لا، بعضها يرتبط بموروث ديني وبعضها لا، ما أن نرى في ذاتنا وفي أصولنا وفي مسارنا تقاطعات ومساهمات وتهجينات ومؤثرات متنوعة ودقيقة

ومتناقضة، حتى تتولد لدينا علاقة مختلفة مع الآخرين وكذلك مع قبيلتنا. لم يعد هناك بكل بساطة «نحن» و«هم»، أي جيشان مستنفران يستعدان للمواجهة الوشيكة والثأر القريب. بات يوجد في جانبنا أشخاص أشتركُ معهم بأشياء قليلة جداً، وإلى جانبهم أشخاص أستطيع أن أشعر أنني قريب جداً منهم.

ولكن بالعودة إلى الموقف السابق، يمكن أن نتخيل كيف يُدفع الرجال إلى أسوأ أنواع التطرف: إذا كانوا يشعرون أن «الآخرين» يشكلون تهديداً لاثنيتهم أو ديانتهم أو وطنهم فكل مايستطيعون القيام به من أجل رد هذا التهديد يبدو لهم مشروعاً تماماً؛ حتى عندما يصل بهم الأمر إلى حد ارتكاب المجازر يكونون مقتنعين أن الأمر يتعلق بإجراء ضروري من أجل الحفاظ على حياة أقاربهم. وبما أن كل الذين يدورون في فلكهم يشاطرونهم هذا الشعور، يشعر الجزارون بأنهم أصحاب ضمير حي غالباً، ويستغربون عندما ينعتونهم بالمجرمين. يقسمون بأنهم ليسوا مجرمين لأنهم لايسعون إلّا إلى حماية جدتهم وأخوتهم وأخواتهم وأطفالهم.

إن الشعور بالتحرك من أجل الإبقاء على حياة أهلهم، مدفوعين بصلواتهم، وأنهم في حالة دفاع مشروع، إن لم يكن فوراً، فعلى المدى الطويل، هي الميزة المشتركة لكل الذين ارتكبوا خلال السنوات الأخيرة، في مختلف أنحاء الكرة الأرضية، من رواندا إلى يوغسلافيا السابقة، الجرائمَ الأكثر بشاعة.

لايتعلق الأمر ببعض الحالات المعزولة. فالعالم مليء بالجماعات الجريحة التي مازالت تتعرض للاضطهاد أو التي تحتفظ بذكرى الآلام السابقة والتي تحلم بالحصول على الثأر. لانستطيع ألّا نتأثر لآلامهم، ولانستطيع ألّا نتعاطف مع رغبتهم في التحدث بلغتهم بحرية، أو ممارسة ديانتهم بلا خوف، أو المحافظة على تقاليدهم. ولكننا ننزلق أحياناً من التعاطف إلى المحاباة. إذ نغفر لهؤلاء الذين عانوا من صلف الاستعمار والعنصرية ورهاب الأجانب إفراطهم في كبريائهم الوطني وعنصريتهم وكرههم

للأجانب، ونهمل للسبب ذاته مصير ضحاياهم، على الأقل ما لم يسِلْ الدم بغزارة.

ذلك أننا لانعرف أبداً أين يتوقف التأكيد المشروع للهوية وأين يبدأ التطاول على حقوق الآخرين! ألم أقل منذ قليل أن كلمة «هوية» «صديق مزيف؟» فهي تبدأ بالكشف عن تطلع مشروع وتصبح فجأة أداة حرب. إن الانزلاق من جهة إلى أخرى غير مُدرَك، كأنه طبيعي، وجميعنا نستسلم له أحياناً. نفضح الظلم، وندافع عن حقوق شعب يعاني، ونجد أنفسنا في الغداة شركاء في مذبحة.

كل المذابح التي حدثت خلال السنوات الأخيرة، وكذلك معظم الصراعات الدامية ترتبط بملفات عن الهويات، معقدة وقديمة جداً. أحياناً لايتغير الضحايا على مر الزمن. أحياناً تنقلب العلاقات ويصبح جزارو الأمس ضحايا، ويتحول الضحايا إلى جزارين. ولابد من القول بأنه لامعنى لهذه الكلمات إلا للمراقبين الخارجيين؛ أما بالنسبة للمتورطين مباشرة في هذه الصراعات على الهوية، وبالنسبة للذين عانوا والذين خافوا، فهناك بكل بساطة «نحن» و«هم»، الإهانة واستعادة الكرامة، ليس إلا! «نحن» حكماً وبالتعريف ضحايا أبرياء، و«هم» حكماً مذنبون، مذنبون منذ زمن طويل ومهما كان مايتحملونه الآن.

وعندما تتدخل نظرتنا، وأعني نظرة المراقبين الخارجيين، بهذه اللعبة المنحرفة، وتسبغ على هذه الجماعة أو تلك دور الحمل وعلى الأخرى دور الذئب نقوم دون علم منا بمنح صك البراءة بشكل مسبق لجرائم بعضهم. حتى أننا شهدنا في نزاعات حديثة بعض الزمر ترتكب فظاعات ضد سكانها لأنها تعرف أن الرأي الدولي سيتّهم أخصامها تلقائياً.

يضاف إلى هذا النوع من التواطؤ نوع آخر لايقل سوءاً. إنه تواطؤ المشككين الأبديين الذين يسارعون، عند كل مذبحة جديدة

بسبب الهوية، إلى إعلان أن الأمر هو ذاته منذ فجر التاريخ وأنه وهمي وساذج أن نتوقع أن تتغير الأمور. إن المذابح الاثنية تُعامل أحياناً، عن قصد أو غير قصد، كأنها جرائم انفعالية جماعية، بالتأكيد يؤسَف لها ولكنها مفهومة وعلى أي حال حتمية لأنها ملازمة للطبيعة الإنسانية.

لقد سبب موقف السكوت عن القتل مايكفي من الأضرار حتى الآن، ويبدو لي أن الواقعية التي يدّعيها هذا الموقف مزيفة. أن يكون مفهوم الهوية القبائلي هو السائد حالياً في العالم أجمع وليس عند المتعصبين فقط هو للأسف الحقيقة الخالصة. ولكن العديد من المفاهيم سادت منذ قرون ولم تعد مقبولة اليوم، كالفوقية الطبيعية للرجل على المرأة، والتراتبية بين الأعراق، أو حتى التمييز العنصري الأقرب إلينا زمنياً، ومختلف أنواع التمييز الأخرى. كما اعتُبر التعذيب لفترة طويلة اعتيادياً في ممارسة العدالة، وظهرت العبودية طويلاً بوصفها واقع حياة، لدرجة أن عقولاً كبيرة من الماضي امتنعت عن إعادة النظر فيها.

ثم نجحت أفكار جديدة ببطء في فرض نفسها: فكرة أن لكل شخص حقوقاً يجب تحديدها واحترامها؛ فكرة أنه ينبغي أن يكون للنساء حقوق الرجال ذاتها. فكرة أن الطبيعة أيضاً تستحق الحفاظ عليها؛ فكرة وجود مصالح مشتركة بين البشر في مجالات تزداد يوماً بعد يوم كالبيئة والسلام والمبادلات الدولية ومواجهة الكوارث الكبرى؛ فكرة أنه يمكن أو بالأحرى يجب التدخل في الشؤون الداخلية للدول عندما لاتحترم حقوق الإنسان الأساسية.

كل ذلك لنقول بأن الأفكار التي سادت على مر التاريخ ليست بالضرورة هي ذاتها التي يجب أن تسود في العقود القادمة. عندما تظهر حقائق جديدة نحتاج لإعادة تقييم مواقفنا وعاداتنا: أحياناً عندما تظهر هذه الحقائق بسرعة كبيرة، تبقى عقلياتنا في المؤخرة، ونجد أنفسنا نكافح الحرائق برشها بالمواد القابلة للاشتعال.

في عصر العولمة، ومع هذا الخلط المتسارع الذي يسبب الدوار ويحيط بنا جميعاً، يُفرَض مفهوم جديد عن الهوية بشكل طارئ! لا يمكننا أن نكتفي بأن نفرض على مليارات الناس الضائعين الاختيار بين التأكيد المفرط لهويتهم وفقدان كل هوية، بين الأصولية والتفكك. والحال أن هذا بالضبط ما يعنيه المفهوم السائد في هذا المجال. إذا لم يكن معاصرونا متشجعين للاضطلاع بانتماءاتهم المتعددة، وإذا عجزوا عن التوفيق بين حاجتهم للهوية والانفتاح الصادق والمجرد من العُقَد على الثقافات المختلفة، وإذا أحسوا أنهم مرغمون على الاختيار بين التنكّر للذات ونفي الآخر، سنكون في طريقنا إلى تشكيل أفواج من المجانين الدمويين، أفواج من المنحرفين.

ولكني أودّ أن أعود لحظات قليلة إلى بعض الأمثلة التي ذكرتُها في بداية الكتاب: إذا توصل رجل من أم صربية وأب كرواتي إلى الاضطلاع بانتمائه المزدوج فهو لن يشارك أبداً في أية مذبحة اثنية أو أي «تطهير»؛ إذا شعر رجل من أم هوتو وأب توتسي أنه قادر على تحمل هذين التقاطعين الذين أتيا به إلى العالم فلن يكون أبداً سفاحاً أو قاتلاً جماعياً، ولن يكون ذلك الفرنسي ـ الجزائري الذي ذكرتُه أعلاه وذلك التركي ـ الألماني الشاب، إلى جانب المتعصبين إذا تمكنا من عيش هويتهما المركبة بسكينة.

هنا أيضاً نكون مخطئين إذا لم نر في هذه الأمثلة إلّا حالات حدّية. في كل مكان تتحاذى فيه اليوم مجموعات إنسانية يختلف بعضها عن الآخر بالدين أو اللون أو اللغة أو الاثنية أو القومية، وفي كل مكان تتصاعد فيه التوترات الأكثر أو الأقل قِدماً، الأكثر أو الأقل عنفاً، بين مهاجرين وسكان محليين، وكذلك بين البيض والسود، الكاثوليك والبروتستانت، اليهود والعرب، الهندوس والسيخ، الليتوانيين والروس، الصرب والألبان، اليونان والأتراك، الكبيكيين والناطقين بالانكليزية، الفلمنديين والوالونيين، الصينيين

والمالاويين، نعم، في كل مكان، في كل مجتمع منقسم يوجد عدد من الرجال والنساء الذين يحملون في داخلهم انتماءات متناقضة ويعيشون على التخوم بين جماعتين متصارعتين، كائنات تخترقها نوعاً ما الصدوع الاثنية أو الدينية أو غيرها.

لانتعامل هنا مع حفنة من الهامشيين، فعددهم بالآلاف، بل بالملايين، وعددهم في تزايد مستمر، إنهم «حدوديون» بالولادة أو بمصادفات مسارهم أو أيضاً بإرادة واعية، وهم يستطيعون أن يؤثروا على الأحداث وجعل الكفة تميل في اتجاه أو آخر. والذين يستطيعون من بينهم الاضطلاع كلياً بتنوعهم ينفعون «كصلات» وصل بين مختلف الجماعات والثقافات وهم «المادة» التي تعزز اللحمة داخل مجتمعاتهم. وبالمقابل فالذين لايستطيعون الاضطلاع بتنوعهم الخاص يجدون أنفسهم أحياناً بين أشد القتلة على الهوية فتكاً، يهاجمون الذين يمثلون ذلك الجزء الذي يريدون طمسه من أنفسهم. إنه «كره الذات» الذي شاهدنا أمثلة عديدة عليه عبر التاريخ.

5

لاشك أن طروحاتي هي طروحات مهاجر أقلّي. ولكن يبدو لي أنها تعكس حساسية يتشاطرها معاصرونا بشكل متزايد. أليس من خصوصية عصرنا أنه جعل من كل الرجال، بشكل ما، مهاجرين وأقليين؟ فجميعنا مجبرون على العيش في عالم لايشبه أبداً أرضنا الأصلية، علينا جميعاً أن نتعلم لغات أخرى ومخاطبات أخرى وشيفرات أخرى. وجميعنا لدينا الانطباع بأن هويتنا، كما تخيلناها منذ الطفولة، مهددة.

كثيرون غادروا مسقط رأسهم وكثيرون غيرهم، دون أن يغادروه، ما عادوا يعرفونه. لاشك أن ذلك يعود في جزء منه إلى خصوصية دائمة للنفس الإنسانية الميالة طبيعياً إلى الحنين، ولكن ذلك يعود أيضاً إلى واقع أن التطور المتسارع جعلنا نجتاز في ثلاثين سنة ماكان يتطلب اجتيازه ذات يوم أجيالاً عديدة.

كذلك لم يعد وضعُ المهاجر وضعَ مجموعة من الأشخاص الذين اقتُلعوا من الوسط الذي يحتضنهم، لقد اكتسب قيمة نموذجية. فهو الضحية الأولى لمفهوم الهوية «القبائلي». إذا كان هناك انتماء واحد يهمّ، وإذا كان لابد من الاختيار، سيجد المهاجر أنه منقسم وممزق ومحكوم عليه بأن يخون إما وطنه الأصلي وإما الوطن المَضيف، وهي خيانة سيحياها حتماً بمرارة وغضب.

قبل أن يصبح المرء مهاجراً يكون نازحاً. أي قبل الوصول إلى

بلد، لابد أنه غادر بلداً آخر، ومشاعر الشخص تجاه الأرض التي غادرها ليست بسيطة أبداً. إذا كان المرء قد غادر فلأن هناك أشياءً رفضها، كالقمع والخوف والفقر وغياب الأفق. ولكن من الشائع أن يترافق هذا الرفض بإحساس بالذنب. هناك أقارب نلوم أنفسنا لأننا غادرناهم، ومنزلاً ترعرعنا في كنفه، والكثير الكثير من الذكريات السعيدة. هناك أيضاً روابط تستمر، روابط اللغة أو الدين، وكذلك الموسيقا ورفاق الغربة والأعياد والمأكولات.

وبموازاة ذلك، لاتقل الأحاسيس التي نشعر بها تجاه البلد المَضيف غموضاً. لقد أتيناه لأننا نأمل أن نجد فيه حياة أفضل لنا ولأهلنا. ولكن يضاف إلى هذا الأمل خوفٌ من مواجهة المجهول، خاصة وأننا نجد أنفسنا في ميزان قوى ليس لصالحنا. إذ نخشى أن نُرفض أو نهان ونترقّب كل موقف ينمّ عن الاحتقار أو السخرية أو الشفقة.

إن الارتكاس الأول هو ألّا يعلن المرء اختلافه، بل هو يريد ألّا يتنبه له أحد. إن الحلم الخفي لمعظم المهاجرين هو أن نظنهم من أبناء البلد. وأول شيء يحاولونه هو أن يقلدوا مضيفيهم، وينجحون في ذلك أحياناً. وغالباً لاينجحون، فليس لديهم اللهجة السليمة ولادرجة اللون المناسبة ولا الكنية ولا الاسم ولا الأوراق الضرورية، لذلك يفشل مخططهم بسرعة. كثيرون يعلمون أن الأمر لايستحق حتى المحاولة، ويظهرون عندئذ، بفخر وشجاعة، أكثر اختلافاً مما هم عليه. ولاداعي للتذكير أن بعضهم يتمادون في ذلك أيضاً، فيؤدي إحباطهم إلى رفض عنيف.

إذ أركّز بهذا الشكل على الحالات الروحية للمهاجر فليس لأن هذا الصراع مألوف لي بشكل شخصي فقط، بل لأنه، في هذا المجال، أكثر من المجالات الأخرى، يمكن للتوترات الناشئة عن الهوية أن تؤدي إلى أكثر الانحرافات قتلاً

في العديد من الدول حيث تتحاذى اليوم مجموعة سكانية مستقلة تحمل ثقافة محلية ومجموعة أخرى وصلت بعدها تحمل تقاليد مختلفة، تظهر توترات تؤثر على تصرفات كل منهما، وعلى المناخ الاجتماعي والجدل السياسي. ومن الضروري جداً أن نُلقي على هذه الأسئلة الوجدانية نظرة حكمة ورصانة.

إن الحكمة طريق صاعد، طريق ضيق بين هاويتين، بين مفهومين حدّيين. أول هذين المفهومين، فيما يخص الهجرة، هو الذي يعتبر البلدَ المضيف صفحة بيضاء يمكن لكل فرد أن يكتب عليها ما يحلو له، أو أرضاً بوراً حيث يمكن لكل فرد أن يستقر بأسلحته وأمتعته دون أن يغير شيئاً في تصرفاته وعاداته. المفهوم الحدي الآخر هو الذي يعتبر البلد المضيف أرضاً وُضِعت قوانينها وقيمها ومعتقداتها وخصائصها الثقافية والإنسانية مرة وإلى الأبد وليس على المهاجرين إلّا مواجهتها.

يبدو لي هذان المفهومان وهميان وعقيمان وضاران بالقدر ذاته. هل قدّمتهما بصورة كاريكاتورية؟ لا أظن ذلك للأسف، من جهة أخرى، لو افترضنا أنني فعلت، فإن رسم صور كاريكاتورية ليس عديم الجدوى، فهي تسمح لكل فرد أن يقيس عبثية موقعه إذا كان مدفوعاً حتى نتيجته النهائية. بعضهم يستمرون في عنادهم في حين أن الرجال الذين يتمتعون بحس سليم يتقدمون خطوة صوب أرض التفاهم البديهية، أي أن البلد المضيف ليس صفحة بيضاء ولاصفحة مكتملة إنه صفحة قيد الكتابة.

يجب احترام تاريخ البلد المَضيف. وعندما أقول تاريخ، أقولها بصفتي مولعاً بالتاريخ، وهذا المفهوم بالنسبة لي ليس مرادفاً للحنين العبثي ولا للماضوية، بل على العكس، فهو يشمل كل مابُني أثناء قرون، أي الذاكرة والرموز والمؤسسات واللغة وأعمال الفن وهي أشياء يحق لنا التعلق بها. وفي الوقت ذاته، كلٌّ يقبل أن مستقبل بلد ما لايمكن أن يكون مجرد امتداد لتاريخه، بل سيكون مؤسفاً لشعب ما، أياً كان، أن يمجّد تاريخه أكثر من مستقبله،

المستقبل الذي يُشيَّد بروح من الاستمرارية ولكن مع تحولات عميقة ومساهمات خارجية هامة مثلما كانت الحالة في حِقَب الماضي المجيدة.

أكلُّ ما فعلته هو تعداد البديهيات المتفق عليها؟ ربما. ولكن بما أن التوترات مستمرة ومشتدة فهذا يعني أن هذه الحقائق ليست بديهية كفاية ومعترفاً بها بعمق. ما أسعى إلى استخلاصه من بين الضباب ليس توافقاً، بل مبادئ للسلوك أو على الأقل رادعاً لبعضهم وبعضهم الآخر.

أشدد على بعضهم وبعضهم الآخر إذ يوجد في مقاربتي بشكل دائم حاجة للتبادل. وهي من أجل الانصاف والفعالية في الوقت ذاته. بهذه الروحية لدي رغبة في أن أقول لبعضهم أولاً: «كلما انطبعتم بثقافة البلد المضيف استطعتم دمغه بثقافتكم» ثم لبعضهم الآخر: «كلّما شعر المهاجر بأن ثقافته الأصلية محترمة انفتح أكثر على ثقافة البلد المضيف».

إنهما معادلتان أصوغهما بنَفَس واحد لأنهما تستقيمان معاً كركائز الكرسي، وبتعبير آخر، كالبنود المتتابعة لاتفاق. هذا ما نحن بصدده بالضبط، عقد أخلاقي تكسب عناصره المزيد من الوضوح في كل حالة ملائمة: ماهو الشيء الذي يُعتبر في ثقافة البلد المضيف جزءاً من الحد الأدنى من المتاع الذي يفترض بكل شخص أن ينتمي إليه، وماهو الشيء الذي يمكن أن يكون مردوداً أو مرفوضاً بشكل مشروع؟ ويصح التساؤل ذاته فيما يتعلق بثقافة المهاجرين الأصلية: أيٌ من مكونات هذه الثقافة يستحق أن يُنقل إلى بلد التبني كهدية زفاف ثمينة؟ وأية عادات وممارسات يجب تعليقها خلف الباب؟

لابد من طرح هذه الأسئلة ومن أن يَجهَد كل فرد في التفكير فيها حالة فحالة حتى لو لم تُرضنا الأجوبة التي قد نحصل عليها كلياً. أنا الذي أعيش في فرنسا لا أجازف في تعداد مايجب أن يلتزم به الراغبون في الإقامة بهذا البلد من موروثه، إذ يمكن رفض كل

عنصر أستطيع ذكره، بلا استثناء وبشكل مشروع، سواء كان مبدأً جمهورياً أو مظهراً من مظاهر الحياة أو شخصية مؤثرة أو مكاناً رمزياً، ولكن نخطئ إذا استخلصنا أننا نستطيع رفض كل شيء دفعة واحدة. أن تكون حقيقة ما ملتبسة وغامضة ومتقلبة لايعني عدم وجود حقيقة.

إن الكلمة السيدة، هنا أيضاً، هي المبادلة: إذا كنت انتميت إلى بلدي بالتبني واعتبرته بلدي، واعتبرت أنه يشكل جزءاً مني وأنا جزء منه، وتصرفت تبعاً لذلك، يصبح من حقي أن أنتقد كل مظهر من مظاهره. وبالتوازي إذا كان هذا البلد يحترمني ويعترف بمساهمتي ويعتبرني مع خصوصياتي جزءاً منه، يحق له عندها أن يرفض بعض مظاهر ثقافتي التي قد لاتتوافق مع طريقة عيشه أو روح مؤسساته.

إن حق انتقاد الآخرين حق يُكتسب ويُستحق. إذا أبدينا لأحدهم عداوة واحتقاراً فإن أقل ملاحظة نصوغها، سواء كانت مسوَّغة أم لا، ستبدو تهجماً يدفعه إلى التصلب والانغلاق على نفسه مما يجعل عملية التغيّر صعبة. وبالعكس، إذا أبدينا لأحدهم الصداقة والود والاحترام، ليس بالمظاهر فقط وإنما بموقف صادق يشعره على هذا النحو، يمكن عندئذ أن نسمح لأنفسنا بأن ننتقد ما نقدّر أنه يستحق الانتقاد مع إمكانية أن يصغي لنا.

هل يوجد في ذهني، وأنا أقول ذلك، منازعات كتلك التي حدثت في بعض الدول حول «الحجاب الإسلامي»؟ ليس هذا جوهر طرحي. فأنا على الأقل مقتنع بأن مثل هذه المشاكل يكون حلها أكثر سهولة لو تم تناول العلاقات مع المهاجرين بشكل مختلف. عندما نشعر أن لغتنا مُحتَقرة وديانتنا مهانة وثقافتنا منقوصة القيمة نرتكس بإظهار علامات اختلافنا بتفاخر؛ وعلى العكس، عندما نشعر بالاحترام ونشعر أن لنا مكانتنا في البلد الذي اخترنا العيش فيه تكون ردة فعلنا مختلفة.

من أجل التوجه بإصرار صوب الآخر يجب أن تكون الذراعان

مفتوحتين والرأس مرفوعاً. ولانستطيع فتح ذراعينا إلا إذا كان رأسنا مرفوعاً. إذا شعرنا في كل خطوة أننا نخون أهلنا ونتنكر لأنفسنا يصبح تقدمنا باتجاه الآخر باطلاً؛ إذا كانَ الذي أدرس لغته لايحترم لغتي، يكفُّ التحدث بلغته عن كونه حركة انفتاح، ويصبح فعل تبعية وخضوع

ولكن بالعودة لحظة إلى الحجاب، لاأشك لحظة بأن الأمر يتعلق بسلوك ماضوي ورجعي. أستطيع أن أقول مطولاً لماذا أرى الأمور على هذا النحو في ضوء قناعاتي وبالتذكير بمختلف حِقَب تاريخ العالم العربي الإسلامي ومعركة النساء الطويلة من أجل التحرر. سيكون ذلك بلا جدوى، فالمسألة الحقيقية ليست هنا. المسألة الحقيقية ليست معرفة إذا كنا بصدد صراع بين الأصولية والحداثة ولكن أن نعرف لماذا تُرفض الحداثة أحياناً في تاريخ الشعوب، ولماذا لايُنظر إليها دائماً بوصفها تقدماً أو تطوراً مرحباً به.

إنه تساؤل جوهري في إطار التفكير في الهوية، اليوم أكثر من أي وقت آخر. وإن مثال العالم العربي، في هذا الخصوص، هو من أبرز الأمثلة.

II

عندما تأتي الحداثة من الآخر

1

كل الذين يستهويهم العالم العربي أو يغريهم أو يقلقهم أو يرعبهم أو يشغلهم لايسعهم إلا أن يطرحوا على أنفسهم من وقت لآخر عدداً من الأسئلة.

لماذا كل هذه الحجب، وهذه الملاءات، وهذه اللحى التعيسة، وهذه الدعوات إلى القتل؟ لماذا كل هذا القدر من مظاهر السلفية والعنف؟ أكلُّ ذلك ملازم لهذه المجتمعات وثقافتها وديانتها؟ ألا يتوافق الإسلام مع الحرية، ومع الديمقراطية، ومع حقوق الرجل والمرأة، ومع الحداثة؟

من الطبيعي أن تُطرح مثل هذه الأسئلة وهي تستحق أفضل من الإجابات التبسيطية التي نقدمها في أغلب الأحيان. ينبغي أن أقول من الجهتين، وهي عبارة عزيزة عليّ كما لاحظتم. نعم، من الجهتين. لاأستطيع أن أتابع هؤلاء الذين يكررون، بالأمس كما اليوم، الأحكام المسبقة المعادية للإسلام ذاتها، ويظنون أنهم مؤهلون، كلما طرأ حدث شائن، لاستخلاص نتائج حاسمة حول طبيعة بعض الشعوب والديانات. وفي الوقت ذاته، لاأشعر أنني مرتاح أمام المسوِّغات المنهكة للذين يرددون دون قلق أن كل مايحدث ينتج عن سوء تفاهم مؤسف وأن الدين ليس إلا تسامحاً؛ وهؤلاء دوافعهم مشرفة، لاأضعهم مع الذين يغلون بالحقد على المستوى ذاته، ولكن خطابهم لايرضيني.

عندما يُرتكب عمل ذميم باسم عقيدة ما، أيّاً كانت، لاتصبح هذه العقيدة مذنبة. حتى لو كان من غير الممكن اعتبارها غريبة كلياً عن هذا الفعل. فبأي حق أستطيع أن أؤكد مثلاً أن «طالبان» أفغانستان لاعلاقة لهم بالإسلام، وأن بول بوت لاعلاقة له بالماركسية، وأن نظام بينوشه لاعلاقة له بالمسيحية؟ أنا مضطر، كمراقب، إلى أن ألاحظ أن الأمر، في كل حالة من هذه الحالات، يتعلق باستخدام محتمل للعقيدة المعنية، وهو ليس الاستخدام الوحيد بالتأكيد، ولا الأوسع انتشاراً، ولكن لايمكن التعامل معه باستخفاف. عندما يحدث انحراف من السهل أن نجزم أنه كان محتماً، مثلما هو عبثي تماماً أن نحاول إثبات أنه كان يجب ألا يحدث أبداً وأنه مجرد حادث. وإن حدث فهذا يعني أنه كان محتمل الحدوث.

إن من ينضوي تحت منظومة اعتقادية يحق له تماماً أن يقول بأنه يقر بهذا التأويل للعقيدة، وليس بغيره. إذ يمكن لمسلم مؤمن أن يقدّر أن سلوك الطالبان يناقض أو لايناقض حرفية عقيدته وروحها. وأما أنا الذي لست مسلماً، إضافة إلى أنني أقع عن قصد خارج كل منظومة اعتقاد، فلا أشعر أنني مؤهل أبداً للتمييز بين ما يتوافق مع الإسلام ومالايتوافق معه. لدي آمالي وأفضلياتي ووجهة نظري بالتأكيد. حتى أنني أميل باستمرار للقول بأن هذا السلوك المتطرف أو ذاك، كوضع القنابل أو منع الموسيقا أو تشريع الختان (للبنات)، لايتوافق مع رؤيتي للإسلام. ولكن ليس لرؤيتي للإسلام أية أهمية. وحتى لو كنت دكتوراً في الشريعة، ومن أكثرهم تُقى وعلماً، ما كان لرأيي أن يضع حداً لأي جدال.

من العبث الاستغراق في الكتب المقدسة ومراجعة التفاسير وجمع الآراء، إذ سيكون هناك دائماً تأويلات مختلفة وآراء تناقضة. بالاستناد إلى الكتب ذاتها نستطيع قبول الاستعباد أو حريمه، تبجيل الايقونات أو رميها في النار، منع الخمر أو السماح ه، المناداة بالديمقراطية أو بالثيوقراطية؛ كل المجتمعات الإنسانية رفت كيف تجد على مدى القرون الشواهد المقدسة التي كان يبدو

أنها تسوّغ ممارساتهم الآنية. لقد تطلب الأمر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة كي تبدأ المجتمعات المسيحية واليهودية المستندة إلى الكتاب المقدس بالتفكير بأن عبارة «لاتقتل» يمكن أيضاً تطبيقها على عقوبة الاعدام. بعد مئة عام سيقولون لنا بأن الأمر بديهي. إن النص لايتغير، نظرتنا هي التي تتغير. ولكن النص لايؤثر على حقائق العالم إلا من خلال رؤيتنا. وهي تتوقف في كل عصر عند بعض الجمل وتمر على أخرى دون أن تراها.

لهذا السبب يبدو لي أنه لاجدوى من التساؤل عما تقوله حقيقة المسيحية أو الإسلام أو الماركسية. إذا كنا نسعى إلى إجابات وليس إلى مجرد تأكيد للأحكام المسبقة، السلبية أو الإيجابية، التي نحملها أصلاً في ذاتنا، فلا يجب الانكباب على جوهر العقيدة وإنما على تصرفات الذين كانوا يستندون إليها على مر التاريخ.

هل أن المسيحية بجوهرها متسامحة ومحترِمة للحريات ومفطورة على الديمقراطية؟ إذا صغنا التساؤل بهذا الشكل نكون مضطرين إلى الإجابة بـ «لا». إذ يكفي العودة إلى بعض كتب التاريخ لنتبين كم من التعذيب والاضطهاد والقتل مورس على مدى العشرين قرناً الماضية باسم الدين، وأن أعلى السلطات الكهنوتية، وكذلك الغالبية العظمى من المؤمنين، استفادت من تجارة العبيد وخضوع النساء، والديكتاتوريات الجائرة، وكذلك من محاكم التفتيش. فهل هذا يعني أن المسيحية في جوهرها مستبدة وعنصرية ورجعية وغير متسامحة؟ أبداً، يكفي أن ننظر حولنا لنتبين أنه يوجد اليوم علاقة جيدة مع حرية التعبير وحقوق الإنسان والديمقراطية. هل يجب أن نستنتج أن جوهر المسيحية قد تغير! أو أن «الروح الديمقراطية» التي تحركها بقيت مختبئة خلال تسعة عشر قرناً لتنكشف في منتصف القرن العشرين فقط.

لكي نفهم لابد من طرح الأسئلة بصورة مختلفة: هل كانت الديمقراطية في تاريخ العالم الإسلامي مطلباً دائماً؟ الجواب بوضوح

هو «كلا». ولكن هل استطاعت الديمقراطية أن تتأسس في مجتمعات تتبع موروثاً مسيحياً؟ الجواب هنا بكل وضوح هو «نعم». كيف وأين ومتى حدث هذا التطور؟ لايمكن الإجابة على هذا التساؤل الذي ننوي طرحه بصيغة مماثلة فيما يخص الإسلام، بشكل مختصر كما بالنسبة للأسئلة السابقة. لكنه من تلك الأسئلة التي يمكن أن نحاول الرد عليها بشكل منطقي. أكتفي هنا بالقول إن تأسيس مجتمع يحترم الحريات كان تدريجياً وغير كامل ومتأخراً جداً بالنسبة إلى التاريخ بمجمله، وإذا كانت الكنائس قد ساهمت في هذا التطور فقد تبعت عموماً الحركة بنوع من التحفظ أكثر مما حفزت عليه، وإن الاندفاع التحرري أتى في أغلب الأحيان من أشخاص يقعون خارج إطار الفكر الديني.

ربما أسعدت كلماتي الأخيرة هؤلاء الذين لايحملون الدين في قلبهم. ومع ذلك أجد نفسي مضطراً لتذكيرهم بأن أسوأ مآسي القرن العشرين من حيث الاستبداد والاضطهاد والقضاء على كل حرية واحترام إنساني ليست ملازمة للتعصب الديني، ولكن لأنواع أخرى من التعصب تعتبر نفسها معادية للدين وهي حالة الستالينية، أو تتجاهل الدين، وهي حالة النازية وبعض العقائد القومية الأخرى. صحيح إن التعصب الديني، منذ السبعينات، يبدو في عجلة لاستكمال رصيده من الأهوال لكنه مازال بعيداً عن ذلك.

لقد علّمنا القرن العشرون أنه لايوجد عقيدة تحررية بذاتها، فكلها يمكن أن تنحرف، وكلها يمكن أن تشذ، وكلها أيديها ملطخة بالدماء، الشيوعية والليبرالية والقومية وكل من الديانات الكبرى وحتى العلمانية. لاأحد يحتكر التعصب، وبالعكس لاأحد يحتكر ماهو إنساني.

إذا كنا نرغب بالقاء نظرة جديدة ومفيدة على هذه التساؤلات البالغة الدقة يجب أن نمتلك في كل مرحلة من مراحل التقصي هاجس الإنصاف، وليس العداء أو المحاباة أو التعطّف الذي لايُحتمل، والذي يبدو أنه أصبح في الغرب وفي أماكن أخرى طبيعةً ثانية.

2

يتحاذى ويتواجه حول المتوسط، منذ قرون، فضاءان حضاريان، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب والشرق. لن أتوسع كثيراً حول ولادة هذا العقد ولكن لابأس من التذكير، بما أننا نتحدث عن التاريخ، بأن لكل شيء بداية وسياقاً، وفي نهاية المطاف، خاتمة. في العصر الروماني، كل تلك الأصقاع، التي أصبحت من بعد مسيحية أو مسلمة أو يهودية، كانت تنتمي إلى الامبراطورية ذاتها، لم تكن سوريا أقل رومانية من الغال وكان شمال أفريقيا بالتأكيد، من وجهة النظر الثقافية، إغريقياً رومانياً أكثر من أوروبا الشمالية.

لقد تغيرت الأمور جذرياً مع الظهور المتتالي لديانتين موحدتين فاتحتين. أصبحت المسيحية في القرن الرابع الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. وبعد أن نشر المسيحيون عقيدتهم الجديدة، بشكل يثير الإعجاب، بوساطة التبشير والصلاة ومثال القديسين الشهداء، استخدموا سلاح السلطة لتوطيد حكمهم وتثبيت أنفسهم كلياً، واضعين الديانة الرومانية القديمة خارج القانون ومطاردين أتباعها الأخيرين. ومالبث العالم المسيحي أن وصل حدود الامبراطورية، ولكنها كانت قد أصبحت أقل ثباتاً، فروما ستسقط تحت ضربات البرابرة، كما تقول الكتب القديمة، مع بداية القرن الخامس.

واستمرت بيزنطة عاصمة للشرق مدة ألف عام، ولكن محاولتها إعادة تشكيل الامبراطورية باءت بالفشل: لقد نجح جوستنيان لفترة ما في استعادة جزء كبير من الأراضي المتروكة في إيطاليا وإسبانيا وشمال أفريقيا... ولكنه جهد ضائع. إذ تكشّف أن مبادرته يائسة، لأن قادته بدوا عاجزين عن الدفاع عن الأراضي المستعادة. وعندما توفي في عام 565م قُلبت صفحة ومات وهم. فالامبراطورية الرومانية العظمى لن تنبعث من جديد. ولن يتوحد المتوسط تحت سلطة واحدة أبداً، ولن يوجّه سكان برشلونة وليون وروما وطرابلس والاسكندرية والقدس والقسطنطينية عرائضهم أبداً إلى حاكم وحيد.

ولد نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بخمس سنوات، في عام 570 ، خارج حدود الامبراطورية، ولكن ليس بعيداً جداً. كان هناك باستمرار ذهاب وإياب للقوافل بين مسقط رأسه، مكة، وحواضر العالم الروماني كدمشق أو تدمر، إضافة إلى أن الأمر ذاته كان ينطبق على الامبراطورية الإيرانية الساسانية المنافسة للرومان والتي كانت تهددها هي أيضاً اضطرابات خارجية.

لاأنوي تفسير الظاهرة الصوفية والدينية التي تشكلها رسالة الإسلام الذي يخضع ظهوره لقوانين معقدة ودقيقة. لكن من المؤكد أنه كان هناك فراغ مؤاتٍ، من وجهة النظر السياسية، لبزوغ واقع جديد. إذ للمرة الأولى منذ ستة قرون، أي منذ فجر الأزمنة بمقياس الذاكرة الإنسانية، لم يعد ظل روما العظيمة مهيمناً، مما جعل العديد من الشعوب حرة ويتيمة.

هذا الفراغ، أو ربما يجب القول هذا المنفذ، هو الذي سمح للقبائل الجرمانية بالانتشار عبر أوروبا لكي تتخذ لنفسها أراض دُعيت فيما بعد ساكس أو مملكة الفرنج، وهو الذي سمح أيضاً لقبائل الجزيرة العربية بتحقيق خروج بارز خارج صحرائهم الأصلية. لقد توصل هؤلاء البدو الذين عاشوا حتى ذلك الوقت على هامش التاريخ، في بضع عشرات من السنوات، إلى بسط سيادتهم

على أرض شاسعة تمتد من إسبانيا حتى الهند. وكل ذلك بطريقة غايةٍ في التنظيم، تحترم الآخرين نسبياً، ودون موجات من العنف المجّاني.

لست بصدد تقديم هذا الفتح على أنه مسيرة سلمية. أو وصف العالم الإسلامي بأنه جنة من التسامح. ولكن تقييم التصرفات يتم وفقاً لقرنها. لاشك أن الإسلام قد استفاد تقليدياً من وجود أتباع الديانات الأخرى الموحِّدة على الأراضي التي يسيطر عليها. وقد يقول الذين يعارضونني لماذا التبجح بتسامح الماضي، والحاضر على ما هو عليه؟ ولا ألومهم بمعنى ما. إنه لعزاء رديء أن نعرف أن الإسلام كان متسامحاً في القرن الثامن في حين يُذبح الكهنة اليوم ويُطعن المثقفون وتطلق النار على السياح. لاأهدف من خلال التذكير بالماضي إلى إخفاء الفظاعات التي تلقيها الأخبار في وجهنا يومياً، والتي تتضمن أخباراً وصوراً من الجزائر وكابول وطهران وصعيد مصر أو غيرها. إن هدفي مختلف تماماً وأفضّل إعلانه بوضوح من أجل أن تعرفوا ما أرمي إليه. ما أناضل ضده، وسأناضل دائماً، هي تلك الفكرة التي تقول بأن هناك ديانتين متقابلتين، ديانة مسيحية معنية دائماً بنقل الحداثة والحرية والتسامح والديمقراطية، وديانة مسلمة مكرسة منذ البدء للتسلط والظلامية. إنه أمر مغلوط وخطر وهو يجعل كل مبادرة مستقبلية، بالنسبة لجزء كبير من الإنسانية، قاتمة.

لم أتنكر يوماً لديانة آبائي، وأتبنى أيضاً هذا الانتماء ولاأتردد في الاعتراف بتأثيره على حياتي. فأنا الذي ولدت في عام 1949 لم أعرف، من حيث الجوهر، إلا كنيسة متسامحة نسبياً، منفتحة على الحوار، وقادرة على مراجعة ذاتها. وإذا كنت مازلت غير مبالٍ بالعقيدة ومشككاً أمام بعض المواقف، فإني أجد في هذا الانتماء الذي ورثته غنى وانفتاحاً وليس إخصاء. حتى أنني لاأتساءل إذا كانت الكنيسة تعتبرني مؤمناً، فالمؤمن بنظري هو فقط من يؤمن

ببعض القيم التي ألخصها في واحدة: كرامة الكائن الإنساني والباقي ليس سوى أساطير أو آمال.

كل ذلك لأقول إنه يمكن اليوم كما يبدو التردد إلى الكنيسة. لو كنت ولدت قبل مئة عام لكنت أدرت لها ظهري على الأغلب، مقدّراً أنها لاتقبل إطلاقاً فكرة التقدم وفكرة الحرية، وأنها قد انحازت مرة وإلى الأبد إلى جانب التزمت والجمود. لذلك من الضروري تقييم سلوك الرجال والمؤسسات من منظور تاريخي. أنا مثل كثير من الآخرين، مذعور مما أراه وأسمعه اليوم في العالم الإسلامي. ولكن مايكدرني أيضاً هو رؤية بعضهم سعداء جداً وهم يقرِّرون بأن مايحدث ينتمي لطبيعة الإسلام وأن هذا لن يتغير أبداً.

لاتوجد ديانة مجردة من التعصب ولكن إذا قمنا بجردة لهاتين الديانتين «المتخاصمتين» لتبين لنا أن صورة الإسلام ليست بهذا السوء. لو كان أجدادي مسلمين في بلد فتحته الجيوش المسيحية بدلاً من كونهم مسيحيين في بلد فتحته الجيوش المسلمة، لاأظن أنهم كانوا استطاعوا الاستمرار في العيش لمدة أربعة عشر قرناً في مدنهم وقراهم محتفظين بعقيدتهم. ماذا حدث فعلياً لمسلمي إسبانيا وصقلية؟ لقد اختفوا حتى آخرهم، ذُبحوا أو هُجِّروا أو تم تعميدهم بالقوة.

يوجد في تاريخ الإسلام ومنذ بداياته قدرة مميزة على التعايش مع الآخر. وفي نهاية القرن الماضي كان يوجد بين سكان اسطنبول، عاصمة القوة الإسلامية الأساسية، أغلبية غير مسلمة تتألف من اليونانيين والأرمن واليهود. هل يمكن أن نتخيل في العصر ذاته أن يكون نصف سكان باريس أو لندن أو فيينا أو برلين من غير المسيحيين، مسلمين أو يهوداً؟ وحتى اليوم أيضاً يتفاجأ العديد من الأوروبيين لسماع نداء المؤذن في مدنهم.

لا أطلق أي حكم، فقط أبيّن أنه حدث أثناء التاريخ الإسلامي ممارسة طويلة للتعايش والتسامح. وأسارع لأضيف أن التسامح لايرضيني. فأنا لاأرغب أن يتسامح معي الآخرون بل أطالب بأن

يعتبرونني مواطناً كامل الحقوق مهما كانت معتقداتي. سواء كنت مسلماً، أو يهودياً في دولة ذات أغلبية مسلمة، أو مسلماً في وسط مسيحيين ويهود، وكذلك عندما لاأتبنى أية ديانة. إن الفكرة التي تقول إن جماعات «الكتاب»، أي الكتاب المقدس، يجب وضعها تحت حماية المسلمين لم تعد مقبولة اليوم؛ لأن الأمر يتعلق بوضع دوني، لم يخلُ يوماً من الإهانات.

ولكن ينبغي مقارنة مايمكن مقارنته. لقد وضع الإسلام «بروتوكولاً للتسامح» في عصر كانت فيه المجتمعات المسيحية لاتتسامح بشيء. وقد كان هذا «البروتوكول» لقرون عديدة وفي العالم كله أكثر أشكال التعايش تقدماً. وربما بدأ يظهر في أمستردام، في منتصف القرن السابع عشر، أو بعد ذلك بقليل في انكلترا، موقف أقرب إلى مفهومنا الحالي عن حرية الضمير؛ وكان ذلك في نهاية القرن الثامن عشر عندما استطاع رجل مثل كوندورسيه أن يمتدح تحرير اليهود؛ وفقط في النصف الثاني من القرن العشرين وبعد الفظائع التي نعرفها بدأ موقع الأقليات الدينية في كنف أوروبا المسيحية بالتحسن بصورة ملحوظة ويمكن أن نأمل أنها نهائية.

لم يعد «بروتوكول التسامح» الذي كان سائداً في الدول المسلمة يتوافق مع المعايير الجديدة. هل تم تحديثه وتجديده وإعادة تكييفه؟ من حيث الجوهر، لا. حتى أنه يمكننا أن نقول إن مبادئ التسامح، بدلاً من رد الاعتبار إليها بشكل يتلاءم أكثر مع انتظار معاصرينا، أعيد النظر فيها أحياناً بحيث تفقد مكانتها. لدرجة أن العالم الإسلامي بعد أن كان على رأس التسامح أصبح في المؤخرة. لكن هذا الانقلاب في ميزان القوى الأخلاقي بين الشمال وجنوب المتوسط، حديث جداً، وليس مكتملاً إلى الحد الذي نظنه.

هنا أيضاً يوجد رأيان يستحقان التفنيد. الرأي الذي يعتبر، في مقابل الحصيل التاريخي «الإيجابي عموماً» للعالم الإسلامي في موضوع التسامح، أن موجات العنف الحالية مجرد منعطفات عابرة،

وذاك الذي يستند، بعكس الأول، إلى التعصب الحالي ليجعل .. الموقف الماضي تذكراً لامعنى له. ويبدو لي الموقفان عبثيا، بالنسبة لي يُظهر التاريخ بوضوح أن الإسلام يحمل إمكانيات ... من التعايش والتفاعل الخصب مع الثقافات الأخرى، ولكن التاري... الأكثر حداثة يُظهر أيضاً أن التراجع ممكن، وأن هذه الإمكانيا... يمكن لها أن تبقى طويلاً في حالة إمكانيات ليس إلا.

وربما أتمادى قليلاً مشدداً على الملامح ولكن بصعوبة: إذا قارنا تاريخ العالم المسيحي مع العالم المسلم نكتشف من جهة ديانة متعصبة لفترة طويلة وتحمل إغراء توتاليتارياً واضحاً، ولكنها تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى ديانة انفتاح. ومن جهة ثانية ديانة تحمل رسالة انفتاح، ولكنها انحرفت شيئاً فشيئاً إلى سلوكيات تعصبية وتوتاليتارية.

يمكن الإكثار من الأمثلة والتذكير بمصير المانويين ثم الهوغونوتيين أو اليهود، وتوضيح المعاملة التي تلقاها الذين اعتُبروا هراطقة أو منشقين أو مرتدين في كل من العالمين الموحّدَيْن. ولكن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ ولاسجلاً للتناقضات. هناك سؤال واحد يشغلني عندما أقارن هذين الموضوعين: لمَ كان التطور في الغرب إيجابياً إلى هذا الحد ومخيباً للآمال في العالم المسلم؟ نعم أحدد وأشدد: لماذا عرف الغرب، الذي يمتلك تاريخاً طويلاً من التعصب وكان يصعب عليه دائماً التعايش مع الآخر، كيف ينتج مجتمعات تحترم حرية التعبير. في حين أن العالم المسلم الذي مارس التعايش لزمن طويل يظهر هذه الأيام كمعقل للتعصب.

3

ربما فهمنا أنني لاأخضع للرأي الشائع الواسع الانتشار في الغرب والذي يرى بسهولة في الديانة المسلمة مصدر كل الشرور التي تعاني منها المجتمعات التي ينتمون إليها. ولاأعتقد أيضاً أنه يمكن فصل معتقَدٍ ما عن مصير أتباعه كما سبق لي القول. ولكن يبدو لي أننا نبالغ غالباً بتأثير الأديان على الشعوب في حين نهمل، على العكس، تأثير الشعوب على الأديان.

إضافة إلى ذلك، يصح هذا الأمر على كل العقائد. إذا كان من حقنا التساؤل عما فعلته الشيوعية بروسيا، من المفيد أيضاً التساؤل عما فعلته روسيا بالشيوعية، وكيف كان يمكن لتطور هذه العقيدة، ومكانتها في التاريخ، وأثرها في مختلف مناطق العالم، أن أن يكون مختلفاً لو أنها انتصرت في ألمانيا أو انكلترا أو فرنسا، بدلاً من روسيا والصين. بالتأكيد نستطيع أن نتخيل أنه كان سيولد ستالين آخر في هيدلبرغ أو ليدز أو بوردو ولكننا نستطيع أيضاً أن نتخيل أنه ربما ما كان هناك ستالين بالمرة.

وبالطريقة ذاتها نستطيع أن نتساءل عما كانت ستكونه المسيحية لو أنها لم تنتصر في روما، ولم تستوطن في أرض مجبولة بالقانون الروماني والفلسفة اليونانية اللذين يبدوان اليوم عتبات الثقافة الغربية المسيحية، رغم أن الاثنين بلغا أوجهما قبل بزوغ المسيحية بكثير.

عندما أذكّر بهذه البديهيات لاأسعى إلى إنكار أفضال أخوتي الغربيين في الدين، ولكن أن أقول ببساطة إنه إذا كانت المسيحية قد شكلت أوروبا فأوروبا أيضاً قد شكلت المسيحية. إن المسيحية اليوم هي ماصنعته بها المجتمعات الأوروبية. لقد تحوّلت مادياً وفكرياً وغيرت مسيحيتها معها. كم من مرة شعرتْ الكنيسة الكاثوليكية أنها مهددة ومخدوعة ومهانة! كم مرة هبت تسعى جاهدة لتأخير تغيرات تبدو لها مخالفة للعقيدة وللأخلاق الحميدة والإرادة الإلهية! وقد خسرت في أغلب الأحيان؛ مع ذلك كانت تربح دون أن تعرف. فقد كانت مجبرة على مراجعة نفسها يومياً في مواجهة عِلم منتصر يتحدى الكتابات المقدسة، وفي مواجهة الأفكار الجمهورية والعلمانية والديمقراطية، وفي مواجهة تحرر المرأة والتشريع الاجتماعي للعلاقات الجنسية قبل الزواج، والولادات خارج الزواج ومنع الحمل، وفي مواجهة ألف وألف «بدعة شيطانية». لقد بدأت الكنيسة دائماً بالتصلب قبل أن تُعمل المنطق وقبل أن تتكيّف.

هل تنكرت لنفسها؟ لقد ظننا ذلك مرات عديدة، وغداً أيضاً سيكون هناك مناسبات تَدفع إلى مثل هذا الظن. ومع ذلك فالحقيقة هي أن المجتمع الغربي قد شكل على هذا النحو، بألف ضربة إزميل خفيفة، كنيسةً وديانة قادرتين على مواكبة البشر في المغامرة العجيبة التي يعيشونها اليوم.

لقد اخترع المجتمع الغربي الكنيسة والديانة التي كان يحتاج إليها. وأستخدمُ كلمة «يحتاج» بأوسع ما للكلمة من معنى أي بما يتضمن بالتأكيد الحاجة الروحية. لقد ساهم المجتمع بكامله في ذلك بمؤمنيه وغير المؤمنين، وكل الذين ساهموا في تطور الذهنيات ساهموا أيضاً في تطور المسيحية. وهم مازالوا يساهمون بما أن التاريخ مستمر.

وكذلك في العالم المسلم، أنتج المجتمع دوماً ديانة على

صورته. إضافة إلى أن هذه الصورة لم تكن أبداً ذاتها من عصر إلى آخر ومن بلد إلى آخر. عندما كان العرب ينتصرون، ويشعرون أن العالم لهم، كانوا يؤوّلون عقيدتهم بروح من التسامح والانفتاح. لقد انطلقوا على سبيل المثال في مبادرة واسعة وهي ترجمة الموروث اليوناني وكذلك الإيراني والهندي مما سمح بازدهار العلم والفلسفة. في بداية الأمر اكتفوا بالتقليد والنسخ ثم تجرؤوا على الإبداع في التنجيم والزراعة والكيمياء والطب والرياضيات، وكذلك في الحياة اليومية في فن المأكل والملبس وتزيين الشعر والغناء. حتى أنه كان يوجد معلمون للموضة، يبقى زرياب أشهرهم.

ولم تكن تلك فترة قصيرة. فقد عرفت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وتونس، من القرن السابع وحتى القرن الخامس عشر، علماء عظماء ومفكرين كباراً وفنانين موهوبين؛ إضافة إلى أعمال كبيرة وعظيمة في أصفهان وسمرقند واسطنبول حتى القرن السابع عشر، وأحياناً إلى مابعد ذلك. لم يكن العرب الوحيدين الذين ساهموا في هذه الحركة. لقد انفتح الإسلام منذ خطواته الأولى، دون حدود، على الإيرانيين والأتراك والهنود والبربر، بتهور كما يرى البعض، لأن العرب وجدوا أنفسهم محاصرين وخسروا السلطة بسرعة في قلب الامبراطورية التي فتحوها. إنها ضريبة العالمية التي ينادي بها الإسلام.

أحياناً كان فريق من المقاتلين التركمان، يهبطون من سهوب آسيا الوسطى، وما أن يصلوا أبواب بغداد حتى ينطقوا بشهادة التحول إلى الإسلام «لاإله إلا الله محمد رسول الله»، فلا يجرؤ أحد على رفض انتمائهم إلى الإسلام، وفي الغداة يطالبون بحصتهم في السلطة مع هبّات حماسية كتلك التي يقوم بها المهتدون في أغلب الأحيان. لقد تكشف أن هذا الموقف مدمِّر أحياناً، من وجهة نظر الاستقرار السياسي، ولكن أي غنى هو من وجهة النظر الثقافية. إذ تمكنت أفضل الأدمغة، من حدود نهر السند وحتى الأطلسي، أن

تتفتح في حضن الحضارة العربية. ليس فقط بين أتباع الديانة الجديدة؛ لقد استعانوا كثيراً بالمسيحيين من أجل الترجمة، فقد كانت معرفتهم باليونانية أفضل، وإنها لدلالة هامة أن يكون ابن ميمون قد اختار أن يكتب بالعربية كتابه «دلالة الحائرين» الذي يعتبر من أهم آثار الفكر اليهودي.

لاأريد أن أقول بأن الإسلام الذي صوّرته للتو هو الإسلام الوحيد الحقيقي، ولا أنه أكثر تمثيلاً للعقيدة من الطالبان مثلاً. إذ أنني لم أرد وصف إسلام خاص. لقد جلت، في بضعة سطور، قروناً ومدناً تجلّى فيها الإسلام بآلاف الصور. كانت بغداد في القرن التاسع تنبض بالحياة، وأصبحت في القرن العاشر متذمرة متزمتة تعيسة. وكانت قرطبة في القرن العاشر في أوجها وأصبحت في بداية القرن الثالث عشر معقل التعصب. كانت الجيوش الكاثوليكية تتقدم إليها وفي طريقها إلى الاستحواذ عليها قريباً، وماكان المدافعون الأشداء يريدون تقبّل أصوات نشاز.

إنه سلوك أمكن لنا مشاهدته في عصور أخرى أيضاً، منها عصرنا. كلما شعر المجتمع المسلم بالثقة عرف ممارسة الانفتاح. إن الصورة التي نستخلصها عن الإسلام في ذلك الوقت لاعلاقة لها بصورة اليوم الكاريكاتورية. لاأريد أن أقول بأن الصورة القديمة تعكس رسالة الإسلام بشكل أفضل، بل أن هذه الديانة، ببساطة، ككل ديانة وعقيدة أخرى، تحمل في كل عصر بصمات الزمان والمكان. إن المجتمعات الواثقة من نفسها تنعكس في ديانة واثقة ومطمئنة ومنفتحة؛ وتنعكس المجتمعات القلقة في ديانة خائفة ومتزمتة وغاضبة. تنعكس المجتمعات الديناميكية في إسلام ديناميكي مبدع خلاق؛ وتنعكس المجتمعات الجامدة في إسلام جامد يثور لأقل تغيير.

ولكن لنترك قليلاً هذه التناقضات التبسيطية في النهاية، بين ماهو ديانة «جيدة»، وديانة «سيئة»، للدخول في تعريفات أكثر

تحديداً. عندما أشير إلى تأثير المجتمعات على الأديان أفكر مثلاً بواقع تهجم مسلمي العالم الثالث بعنف على الغرب، ليس فقط لأنهم مسلمون وأن الغرب مسيحي، ولكن أيضاً لأنهم فقراء ومحكومون ومنتهكون بينما الغرب غني وقوي. وقد كتبت «أيضاً» ولكني أعني «خاصة». لأنه عند مشاهدة الحركات الأصولية الإسلامية اكتشف بسرعة تأثير العالم الثالث في الستينات على الخطاب والأساليب. وبالمقابل لقد بحثت في تاريخ الإسلام بلا طائل ولم أجد لها أي سلف مؤكد. إن هذه الحركات ليست نتاجاً خالصاً للتاريخ الإسلامي، إنها نتاج عصرنا وتوتراته وانحرافاته وممارساته وخيباته.

لاأناقش هنا عقيدتهم ولاأتساءل عن معرفة ما إذا كانت موافقة للإسلام أم لا، فقد سبق وقلت ما أعتقده بهذا النوع من التساؤلات. فقط أقول إني أرى بوضوح معقول مايجعل من هذه الحركات نتاج عصرنا المضطرب، وأرى بشكل أقل مايجعلها نتاجاً للتاريخ الإسلامي. عندما أرى آية الله الخميني محاطاً بحرسه الثوري وهو يطلب من شعبه الاعتماد على قواه الخاصة ويلعن الشيطان الأكبر ويعد بمحو كل أثر للثقافة الغربية، لاأستطيع منع نفسي من التفكير بالعجوز ماوتسي تونغ، رائد الثورة الثقافية، محاطاً بحرسه الأحمر، وهو يلعن «النمر الورقي الكبير» ويعد بمحو كل أثر للثقافة الرأسمالية. بالتأكيد لاأذهب إلى حد القول بأنهما متماثلان، ولكني ألاحظ بينهما تشابهات عديدة، في حين لا أرى في تاريخ الإسلام أية صورة تذكرني بالخميني. إضافة إلى ذلك فقد بحثت دون جدوى ولم أر أيضاً في تاريخ العالم المسلم أدنى إشارة إلى تأسيس جمهورية إسلامية ولا إلى «قيام ثورة إسلامية»...

ما أنتفض ضده هنا هو تلك العادة التي اتخذناها، في الشمال مثلما في الجنوب، عند المراقبين البعيدين مثلما عند الأتباع المتحمّسين، بأن نضع كل حدث يجري في بلد مسلم تحت عنوان «إسلام»، في حين أن هناك عوامل أخرى تؤثر أيضاً وتفسر بشكل

أفضل ما يحدث. تستطيعون قراءة عشرة مجلدات ضخمة عن تاري الإسلام منذ البدايات ولن تفهموا شيئاً مما يجري في الجزائر اقرؤوا عشر صفحات عن الاستعمار والتحرر فتفهمون مايجري بصورة أفضل.

4

أنهي هذا الاستطراد القصير للعودة إلى طرحي الأساسي، وهو أننا غالباً ما نمنح مكانة هامة لتأثير الأديان على الشعوب وتاريخها، وأقل من ذلك لتأثير الشعوب وتاريخها على الأديان. أعرف أن التأثير متبادل. فالمجتمع يشكّل الدين الذي يشكّل المجتمع بدوره؛ ومع ذلك فأنا ألاحظ أن هناك طريقة في التفكير تقودنا إلى ألا نرى إلا مظهراً واحداً لهذه الجدلية مما يشوه رؤيتنا للأمور.

ولايتردد بعضهم أبداً في تحميل الإسلام مسؤولية كل المآسي التي عَرِفتها وماتزال تعرفها المجتمعات الإسلامية. ولا أنتقد هذه النظرة كونها ظَالمة فقط، بل لأنها جعلت أحداث العالم غير ممكنة الفهم تماماً.

لقد سبق وقيلت أشياء مشابِهة عن المسيحية على مدى قرون قبل أن يُكتشف أخيراً أنها قادرة على تطوير نفسها. أنا مقتنع أن الأمر ذاته ممكن بالنسبة للإسلام وأتوقع أن يشكك بعضهم في ذلك. وأعتقد أننا نحتاج مزيداً من الوقت، كثيراً من الوقت، ربما بضعة أجيال، قبل أن نتمكن من الحصول على دليل يثبت أن هذا المشهد الذي يتبدى لنا في الجزائر وأفغانستان وفي كل مكان نوعاً ما، والمكوَّن من العنف والأصولية والتسلط والقمع، ليس ملازماً

للإسلام، مثلما تكشَّف أن جزاري محاكم التفتيش أو الملوك المستندين إلى الحق الإلهي لاعلاقة لهم بالمسيحية.

إن الفكرة التي تقول إن الإسلام كان دائماً عامل جمود، راسخة في العقول لدرجة أنني لاأجرؤ على مهاجمتها. ومع ذلك سأفعل. إذ ما أن تطرح هذه المسلّمة حتى تتوقف إمكانية الحركة: إذا ركنّا لفكرة أن الإسلام يحكم على أتباعه بالجمود إلى الأبد، وبما أن أتباعه الذين يشكلون ربع البشرية تقريباً لن يتنكروا لديانتهم أبداً، سيبدو مستقبل كوكبنا حزيناً جداً. وأنا من جهتي لاأقبل المسلّمة الأساسية ولا النتيجة.

نعم، لقد حدث جمود بالتأكيد. إذ بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، وبينما كان الغرب يتقدم بسرعة كبيرة، كان العالم العربي يراوح مكانه. لاشك أن للدين علاقة بالموضوع ولكن يبدو لي أنه كان ضحيته أيضاً. لقد طور المجتمع ديانته في الغرب؛ ولم تجر الأمور على النحو ذاته في العالم العربي. ليس لأن هذه الديانة غير «قابلة للتحديث»، فلا يوجد دليل على ذلك، بل لأن المجتمع ذاته لم يحدِّث نفسه. سيقال إن السبب هو الإسلام، وهو رأي متسرع. هل المسيحية هي التي حدّثت أوروبا؟ دون المدافعة عن فكرة أن التحديث حدث ضد رغبة الدين، من المنطقي القول إن الدين لم يكن «المحرك»، بل فرض مقاومة عنيدة في أغلب الأحيان، مما تطلب أن يكون الدفع في صالح التغيير عميقاً وقوياً ومستمراً لكي تخف المقاومة ويتكيف الدين.

هذا الدفع المزعزع والمخلّص لم يحدث أبداً في قلب العالم المسلم. إن الربيع الرائع الذي تعيشه الإنسانية الخلاقة، وهذه الثورة الشاملة العلمية والتكنولوجية والصناعية والفكرية والمعنوية، وهذا العمل الطويل الدؤوب الذي نفذته شعوب في قمة تحولها، تخترع وتُبدِع يومياً وتقلب الثوابت بلا توقف وتهز الذهنيات، ليس حدثاً بين أُخَرْ، إنه فريد في التاريخ، إنه الحدث المؤسس للعالم كما نعرفه اليوم، وقد حدث في الغرب وليس في أي مكان آخر.

لماذا حدث في الغرب ولم يحدث في الصين أو اليابان أو روسيا أو العالم العربي؟ وهل حدث هذا التحول بفضل المسيحية أم رغماً عنها؟ ستتواجه نظريات المؤرخين طويلاً فيما يتعلق بهذا الموضوع، والشيء الوحيد الذي تصعب مناقشته هو الحدث بذاته، أي بزوغ حضارة في الغرب، خلال القرون الماضية، أصبحت الحضارة المرجعية بالنسبة للعالم كله، على المستوى المادي مثلما على المستوى الفكري، لدرجة تهميش كل الحضارات الأخرى وتقليصها إلى حالة ثقافات محيطية مهددة بالزوال.

متى أصبحت سيطرة الحضارة الغربية نهائية؟ ابتداء من القرن الخامس عشر؟ ليس قبل القرن الثامن عشر. من وجهة النظر التي أتبناها اليوم، لايهم. فما هو مؤكَّد ورئيسي أن حضارة محددة أمسكت يوماً ما بزمام الكوكب، وأصبح علمها هو العلم، وطبها هو الطب، وفلسفتها هي الفلسفة، ولم تتوقف حركة التركيز والتنميط هذه، بل على العكس، فهي ماتزال تتسارع منتشرة في كل الميادين وفي كل القارات في آن واحد.

أشدد تكراراً على أن الأمر يتعلق بحدث لاسابق له في التاريخ. حدث في بعض حِقَب الماضي أن بدت حضارة ما، كالحضارة المصرية، أو حضارة بلاد مابين النهرين، أو الحضارة الصينية أو اليونانية أو الرومانية أو العربية أو البيزنطية، متقدمة على كل الحضارات الأخرى. ولكن ما انطلق في أوروبا خلال القرون الماضية ظاهرة مختلفة كلياً. وأتصورها كعملية الإخصاب. إنها المقارنة الوحيدة التي تحضرني. إذ تتجه عدة حيوانات منوية نحو البويضة ويتمكن أحدها من اختراق الغشاء وفي هذه اللحظة يتم رفض كل «المتقدمين» الآخرين؛ منذ اللحظة هناك أب وحيد يشبه الولد. لماذا هو وليس أحداً آخر؟ هل كان هذا «المتقدم» متفوقاً على جيرانه أو أخصامه؟ هل كان سليماً وواعداً أكثر من غيره، ليس بالضرورة وليس بصورة قاطعة. يمكن أن نتهم كل أنواع العوامل، فبعضها مرتبط بالأداء وبعضها الآخر بالظروف أو المصادفة...

ولكن يبدو لي أن هذا الأمر ليس الأهم في هذه المقارنة، بل

التتمة. السؤال المطروح ليس أن نعرف لماذا لم تنجح حضارة الأزتيك أو الإسلام أو الصين في أن تصبح حضارة مسيطرة، فقد كان لكل منها مكامن جاذبيتها ومواضع عجزها وحظوظها العاثر. السؤال هو في أن نعرف لماذا بدأت كل الحضارات الأخرى بالتراجع عندما تقدمت الحضارة الأوروبية المسيحية، ولماذا تم تهميشها كلها بصورة تبدو اليوم نهائية؟ بالتأكيد، ولانقدم هنا إلا بداية الإجابة، لأن البشرية امتلكت منذ ذلك الحين الوسائل التقنية التي تمكنها من السيطرة على الكوكب. ولكن لندع جانباً كلمة سيطرة لنقول إن البشرية كانت قد بلغت من النضج مايمكنها من إنجاب حضارة كوكبية، كانت البويضة جاهزة للتلقيح وقد لقحتها أوروبا الغربية.

لدرجة أننا كيفما نظرنا اليوم نجد الغرب حولنا، في فلاديفوستوك وفي سنغافورة وبوسطن وداكار وطشقند وساوباولو ونوميا والقدس والجزائر. منذ حوالى نصف ألفية وكل مايؤثر طويلاً على أفكار البشر أو صحتهم أو مظهرهم أو حياتهم اليومية هو من صنع الغرب. إن الرأسمالية والشيوعية والفاشية والتحليل النفسي والبيئة والكهرباء والطائرة والسيارة والقنبلة الذرية والهاتف والتلفزيون والمعلوماتية والبنسلين ومانع الحمل وحقوق الإنسان وكذلك غرف الغاز... نعم، كل ذلك أتى من الغرب، بما فيه سعادة العالم وتعاسته.

حيثما نحيا على هذا الكوكب نجد أن كل حداثة هي عملية تغريب، وهو ميل تزيد التطورات التقنية من حدته وتسارعه. في كل مكان تقريباً نجد بالتأكيد صروحاً وأعمالاً تحمل بصمة حضارات خاصة. ولكن كل مايولد من جديد، سواء تعلق الأمر بالأبنية أو المؤسسات أو أدوات المعرفة أو طريقة العيش، هو على صورة الغرب.

لا يحيا الذين ولدوا في قلب الحضارة المسيطرة والذين ولدوا

خارجها هذه الحقيقة بالطريقة ذاتها. يمكن للأولين أن يتحولوا ويتقدموا في الحياة ويتكيفوا دون أن يكفّوا عن كونهم أنفسهم. حتى أننا نستطيع القول إن الغربيين كلما تطوروا شعروا بالتناغم أكثر مع ثقافتهم، فقط هؤلاء الذين يرفضون الحداثة يجدون أنفسهم منقطعين عن الواقع.

أما بالنسبة لبقية العالم وكل الذين ولدوا في كنف ثقافات مهزومة فقد طُرح الاستعداد للتغير والحداثة بصيغ مختلفة. فبالنسبة للصينيين أو الأفارقة أو اليابانيين أو الهنود أو الهنود الأميركيين، وكذلك بالنسبة لليونانيين أو الروس، مثلما هو للإيرانيين أو العرب أو اليهود أو الأتراك، تضمّنت الحداثة على الدوام التخلي عن جزء من الذات. وحتى عندما تستثير الحداثة مشاعر الحماسة أحياناً، فقد كان يتخللها دائماً بعض المرارة، وشعور بالمهانة والتنكر للذات، وتساؤل مؤلم عن مخاطر تمثّلها، وأزمة هوية عميقة.

5

عندما تحمل الحداثة علامة «الآخر» لايكون مفاجئاً أن نرى بعض الأشخاص يرفعون شعارات السلفية من أجل تأكيد اختلافهم، وهذا مانشهده اليوم عند بعض المسلمين من الرجال والنساء، ولكن هذه الظاهرة ليست وقفاً على ثقافة أو ديانة.

على سبيل المثال، كان لابد من انتظار الثورة البولشفية في روسيا ليتم التخلي أخيراً عن التقويم اليوليوسي القديم، لأن التقيد بالتقويم الغريغوري يشعرهم، في إطار لعبة شد الأيدي الدائرة منذ ألف عام تقريباً بين الأرثوذكسية والكاثوليكية، بأنهم قبلوا أن يكون لهذه الأخيرة الكلمة الفصل.

هل كان ذلك مجرد رمز؟ كل شيء في التاريخ يعبّر عن نفسه بوساطة رموز: العظمة والانكسار، النصر والهزيمة، السعادة والاستقرار والبؤس، والهوية أكثر من أي شيء آخر. لايكفي أن يكون التغيير موافقاً لروح العصر لكي يتم قبوله. ينبغي أيضاً ألا يسبب صدمة على مستوى الرموز، وألّا يمنح الذين نحثهم على التغيير شعوراً بالتنكر لذاتهم.

ألاحظ منذ عدة سنوات في فرنسا، عند بعض أقرب أصدقائي، ميلاً إلى التحدث عن العولمة وكأنها مصيبة. وبات ذكر القرية الكوكبية يثير إعجابهم بشكل أقل، وباتوا أقل شغفاً بالانترنت

وبآخر التطورات في مجال الاتصالات. وذلك لأن العولمة تبدو اليوم في نظرهم مرادفاً للأمركة. وهم يتساءلون عن المكانة التي ستحتلها فرنسا غداً في هذا العالم الذي يتجانس بشكل متسارع وماذا سيحل بلغتها وثقافتها وخصوصيتها وإشعاعها وطريقة عيشها. وهم يمتعضون من افتتاح مطعم للوجبات السريعة في حيّهم، وحانقون من هوليوود والـ CNN وديزني والميكروسوفت، ويطاردون في الصحف أية صيغة يُشتبه أنها تتسم بالطابع الانكليزي.

وإذا كنت قد ضربت هذا المثال فذلك لأنه يظهر في رأيي كيف تصبح الحداثة، حتى في الغرب، وفي بلد متطور ذي ثقافة مزدهرة ومحترمة عالمياً، مثارَ شبهة، ما أن يتم تصورها على أنها حصان طروادة لثقافة غريبة مسيطرة.

وحري بنا أن نتخيل الشعور الذي عانته مختلف الشعوب غير الغربية التي يرافق كل خطوة من خطواتها شعور بالاستلام والتنكر للذات منذ أجيال عديدة. كان عليهم أن يعترفوا بأن مهارتهم قد ولّت وأن كل ماينتجونه ما عاد يساوي شيئاً مقارنة بما ينتجه الغرب، وبأن تعلقهم بالطبابة التقليدية هو نوع من التطيّر، وبأن قدراتهم العسكرية ليست سوى ذكرى، وأن رجالاتهم العظماء الذين تعلموا تبجيلهم كالشعراء الكبار والعلماء والعسكريين والقديسين والرحالة لايعنون شيئاً لبقية العالم، وأن ديانتهم متهمة بالبربرية، وأن لغتهم لايدرسها إلا حفنة من الاختصاصيين في حين ينبغي عليهم أن يدرسوا لغات الآخرين إذا كان يريدون البقاء والعمل والمحافظة على اتصال ببقية البشرية. عندما يتحدثون مع غربي فبلغته هو دائماً ونادراً بلغتهم. نجد في جنوب وشرق المتوسط ملايين الأشخاص القادرين على التحدث بالانكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية. وفي المقابل، كم هو عدد الإنكليز والفرنسيين والإسبان والايطاليين الذين رأوا من المفيد دراسة العربية أو التركية؟

نعم، في كل خطوة في الحياة نصادف إحباطاً وخيبة وإهانة فكيف لاتصبح شخصيتنا ممزقة؟ وكيف لانشعر بهويتنا مهددة؟ كيف لانشعر بأننا نعيش في عالم يمتلكه الآخرون ويخضع لقواعد يمليها الآخرون، عالم يشعر فيه المرء أنه يتيم أو غريب أو دخيل أو منبوذ؟ كيف نجنب الآخرين الانطباع بأنهم قد خسروا كل شيء وأنه لم يعد لديهم مايخسرونه حتى باتوا يتمنون على طريقة شمشون أن ينهار الهيكل، يارب! عليهم وعلى أعدائهم؟

لاأدري إذا كان الكثير ممن يتبنون مواقف متطرفة يقومون بمثل هذا التحليل بشكل واعٍ. والحق أنهم لايحتاجونه. إذ لاحاجة لوصف الجرح كي يشعر به المرء.

بدأ العالم الإسلامي المتوسطي يعي تهميشه والهوة التي تفصله عن الغرب نحو نهاية القرن الثامن عشر. وليس أصعب من التأريخ لحدث مبهم كعملية الوعي. ولكن من المقبول عموماً أنه بعد حملة بونابارت على مصر في عام 1799 بدأت شخصيات عديدة من بين المتعلمين، وكذلك بين المسؤولين السياسيين تطرح أسئلة مثل: لماذا تأخرنا إلى هذا الحد؟ لماذا تجاوَزَنا الغرب إلى هذا الحد؟ ماذا فعل؟ وماذا علينا أن نفعل للحاق به؟

بالنسبة لمحمد علي، والي مصر، كان التقليد هو الطريقة الوحيدة للحاق بأوروبا. وقد ذهب بعيداً في هذا الطريق فاستعان بأطباء أوروبيين ليؤسسوا كلية في القاهرة، وأدخل التقنيات الجديدة في الزراعة والصناعة بخطوات حثيثة، حتى أنه كلّف ضابطاً سابقاً من ضباط نابوليون قيادة جيشه، وقد استقبل طوبَويين فرنسيين من أتباع القديس سيمون ليجربوا على أرض مصر التجارب الجريئة التي رفضتها أوروبا. وقد نجح، خلال بضع سنوات، في أن يجعل من بلده قوة إقليمية محترمة. وقد بدأت حملة التغريب الطوعية التي رعاها تؤتي ثمارها بالتأكيد. وبإصرار لايقل

من إصرار بطرس الكبير، ولكن بصورة أقل عنفاً ودون مقاومة تذكر. كان هذا الحاكم العثماني سابقاً يبني في الشرق دولة عصرية قادرة على أن تحتل مكانتها بين الأمم.

ولكن الحلم تبدد ولم يحتفظ العرب عن هذه التجربة إلا بذكرى مريرة. وحتى اليوم، مازال المفكرون والقادة السياسيون يذكرون بحزن وغضب هذا! الموعد الذي فاتهم، ويذكّرون في كل مناسبة، لمن يريد أن يسمع، أن القوى الأوروبية، رأت أن محمد علي قد أصبح شديد الخطر والاستقلالية، فتحالفت من أجل إيقاف صعوده ووجهت حملة عسكرية مشتركة ضده. وقد أنهى حياته مهزوماً مهاناً.

في الحقيقة، عندما نستعيد كل اللعبة العسكرية والدبلوماسية التي دارت حول مسألة الشرق هذه، يمكن أن نعتبر بحق أن الأمر كان مجرد فصلٍ عادي من موازين القوى بين الدول. فانكلترا تفضّل أن تجد على طريق الهند امبراطورية عثمانية منهكة ومريضة بدلاً من دولة مصرية قوية وعصرية. ولايختلف هذا الموقف عمّا دفع انكلترا ذاتها إلى الوقوف، قبل ذلك بسنوات، في وجه نابليون، وتحريك تحالف قادر على تفكيك الامبراطورية الأوروبية التي كان قد بناها. ولكن لايمكن مقارنة مصر القرن التاسع عشر بفرنسا التي كانت أصلاً قوة عظمى يمكن لها أن تنهزم وتبدو أنها دُمّرت ثم تنهض بعد جيل مزدهرة ومنتصرة. في العام 1815 كانت فرنسا مهزومة ومحتلة، وفي العام 1830 ، أي بعد خمسة عشر سنة بالضبط، كانت قد استعادت عافيتها بما يكفي لتنطلق في حملة على الجزائر الواسعة. لم تكن مصر تمتلك مثل هذه العافية. فهي خارجة من سبات طويل وقد باشرت للتو عملية التحديث؛ وقد اتضح أن الضربة التي وجهت إليها في عصر محمد علي كانت قاضية، ولم تسنح لها الفرصة بعد ذلك أبداً أن تلحق بالدول المتقدمة.

أما النتيجة التي استخلصها العرب من تلك الحقبة، ومازالوا،

فهي أن الغرب لايريد لأحد أن يشبهه، يريد فقط أن نطيعه. ونجد في المراسلات المتبادلة بين سيد مصر والقنصليات مقاطع مؤلمة لايتردد فيها بإبراز الفعل الحضاري الذي بدأه مؤكداً أنه احترم مصالح الأوربيين دائماً، ويتساءل لماذا يسعون إلى القضاء عليه وقد كتب يقول: «لست من دينهم، ولكني إنسان أيضاً، ويجب معاملتي بشكل إنساني».

6

يكشف مثال محمد علي أن العالم العربي قد أدرك في وقت مبكر أن التحديث ضرورة وحاجة ملحة ولكن لم يتسنَ له أبداً أن يقاربه بهدوء. لم يكن عليه أن يحرق المراحل وحسب، بينما كانت أوروبا قد تمكنت من أن تأخذ في حسبانها قدراتها الثقافية والاجتماعية والدينية، بل كان عليه، إضافة إلى ذلك، أن يتغرَّب وهو يدافع عن نفسه في مواجهة غرب في ذروة توسعه، بشع ومتعالٍ في أغلب الأحيان.

لقد تحدثت عن مصر، وكان يمكن أن أتحدث عن الصين التي كانت تخضع في الوقت ذاته لحرب الأفيون المُخجلة، باسم حرية التجارة، ولأنها ترفض الانفتاح على الاتجار المربح بالمخدرات. ولابد من التذكير أن انطلاقة الغرب، التي قدمت مالامثيل له للإنسانية جمعاء، كان لها أيضاً مظاهر لايُعتز بها. لقد كان الحدث المؤسس للعالم الحديث حدثاً مدمراً أيضاً. فالغرب، الذي يفيض طاقة والمدرك لقوته الجديدة والمقتنع بتفوقه، انطلق لغزو العالم في كل الاتجاهات وفي كل المجالات معاً، ينشر فوائد الطب والتقنيات الجديدة ومُثُلْ الحرية، ويرتكب في الوقت ذاته المذابح وعمليات النهب والاستعباد.

إن أردت التذكير بهذه الحقائق باختصار فذلك لأشدد على

حقيقة أنه لم يكن يوماً من السهل على عربي، ولاعلى هندي أو مدغشقري أو هندوصيني أو متحدر من الأزتيك، أن ينتمي كلياً دون خلفية أو ندم أو ألم، إلى ثقافة الغرب. كان لابد من تجاوز الكثير من المخاوف والمآخذ والحط من الكرامة أحياناً وتخيل التسويات الدقيقة، وسرعان ما لم يعد ممكناً التساؤل ببساطة، كما في عهد محمد علي: «كيف نطور أنفسنا؟» كان لا مفر من طرح تساؤلات أكثر تعقيداً: «كيف يمكننا أن نواكب الحداثة دون أن نفقد هويتنا؟»، «كيف نتمثل الثقافة الغربية دون أن نتنكر لثقافتنا الخاصة؟»، «كيف نكتسب مهارة الغرب دون أن نبقى تحت رحمته؟».

إن التغريب المنهجي الخالي من العقد الذي مارسه سيد مصر لم يعد على جدول الأعمال. لقد كان سيد مصر رجلاً من عصر آخر. ومثلما لم يترددوا في فرنسا القرن الثامن عشر بتسليم الحكومة للإيطالي جوليو مازاريني، ومثلما كان يمكن لألمانية في روسيا القرن الثامن عشر أن تتربع على عرش القياصرة، كان جيل محمد علي يفكر بمنطق السلطة والدولة وليس بمنطق القومية. فهو من أصل ألباني ولم يكن لديه أي سبب يدفعه لمنح قيادة جيش مصر إلى عربي بدلاً من بوسني أو فرنسي. ويذكّر مصيره قليلاً بالقادة الرومان الذين ابتنوا في أقاليم الامبراطورية قاعدة سلطة ولكنهم ماكانوا يحلمون إلا بالزحف على روما ليعلنوا أنفسهم أباطرة وحكاماً معظَّمين. لو أنه تمكّن من تحقيق حلمه لاستقر في اسطنبول ليجعل منها عاصمة امبراطوريةٍ مسلمة على الطراز الأوروبي.

على أية حال كانت الأمور عند وفاته في العام 1849 قد تغيرت. فأوروبا تدخل عصر القومية، والامبراطوريات ذات القوميات المتعددة في طور التراجع. ولن يتأخر العالم الإسلامي عن اللحاق بهذه الحركة. وبدأت الشعوب التي يحكمها العثمانيون في البلقان بالتحرك بالطريقة ذاتها التي تتحرك بها شعوب الامبراطورية النمساوية المجرية. وفي الشرق الأوسط أيضاً كان الناس يتساءلون

من هويتهم الحقيقية. حتى ذلك الوقت كان لكلٍّ منهم انتماءاته اللغوية أو الدينية أو الإقليمية، ولكن مسألة الانتماء لدولة لم تكن مطروحة بما أنهم جميعاً رعايا السلطان. وما أن بدأت الامبراطورية العثمانية بالتفكك حتى وُضع تقاسم الغنائم بالضرورة على جدول الأعمال، مع مايستتبعه من صراعات لاحلّ لها. أينبغي أن يكون لكل جماعة دولتها الخاصة؟ ولكن ما العمل عندما تتعايش عدة جماعات منذ قرون عديدة في البلد ذاته؟ هل ينبغي تقسيم أراضي الامبراطورية وفقاً للغة أو الدين، أو باتباع الحدود التقليدية للأقاليم؟ يمكن للذين تابعوا في السنوات الأخيرة انفجار يوغوسلافيا إن يكوّنوا فكرة مخففة جداً وعلى مقياس مصغر، عما كانه القضاء على الامبراطورية العثمانية.

واجتهدت مختلف الشعوب في تحميل بعضها مسؤولية الآلام التي تعاني منها. إذا كان العرب لايتقدمون فذلك بسبب الحكم التركي الذي كان يجمِّدهم. وإذا كان الأتراك لايتقدمون فذلك لأنهم يجرّون منذ قرون عبء العالم العربي. أليست فضيلة القومية الأولى أنها تجد لكل مسألة مذنباً بدلاً من حل؟ إذاً تمرد العرب على الأتراك مقتنعين بأن نهضتهم ستقلع أخيراً، بينما كان الأتراك منهمكين في إزالة الآثار العربية عن ثقافتهم ولغتهم وأبجديتهم ولباسهم ليتمكنوا من الانضمام إلى أوروبا بسهولة أكثر وحمولة أقل.

ربما كان هناك جزء من الحقيقة في طروحات الطرفين. كل مايحصل لنا هو بشكل ما خطأ الآخرين، وما سيحصل للآخرين هو دائماً بسبب خطئنا. ولكن لايهم... إن كنت أذكر آراء القوميين العرب أو الأتراك فليس لمناقشتها وإنما لجذب الانتباه إلى حقيقة منسية غالباً، وهو أن الرد العفوي للعالم الإسلامي على القضية التي طرحَتْها ضرورة التحديث لم يكن الأصولية الدينية. فقد بقيت هذه الأخيرة لفترة طويلة جداً موقفاً غاية في الأقلية، موقف زمر قليلة، هامشياً حتى لانقول تافهاً. لم يُحكم العالم الإسلامي المتوسطي

باسم الدين وإنما باسم القومية. فالقوميون هم الذين أوصلوا البلاد إلى الاستقلال، لقد كانوا آباء الوطن، وهم الذين أمسكوا فيما بعد بزمام الأمور لمدة عقود، وإليهم اتجهت كل الأنظار بترقب وأمل. لم يكونوا جميعهم علمانيين منفتحين وعصريين كأتاتورك، لكنهم ماكانوا يستندون أبداً إلى الدين الذي وضعوه بشكل ما بين قوسين.

كان عبد الناصر أبرز هؤلاء القادة؟ أقلت أبرزهم؟ إنها تلميحة مسطحة. إذ يصعب أن نتخيل اليوم ماكان للرئيس المصري من نفوذ ابتداء من العام 1956 . فقد كانت صوره معلقة في كل مكان من الدار البيضاء إلى عدن، والشبان واليافعون لايقسمون إلا به، ومكبرات الصوت تبث أناشيد النصر، وعندما كان يلقي أحد خطبه الدفاقة المطولة كان الناس يتحلّقون حول أجهزة الترانزستور لساعتين أو ثلاث أو أربع دون كلل. كان عبد الناصر بالنسبة للناس مثالاً وقداسة. عبثاً بحثت في التاريخ الحديث عن ظواهر مشابهة فلم أجد أياً منها. لايوجد ظاهرة شملت هذا العدد من الدول في الوقت ذاته وبمثل هذه الشدة. على أية حال، فيما يتعلق بالعالم العربي الإسلامي لم يحدث مايشبه هذه الظاهرة أبداً ولو من بعيد.

والحال أن هذا الرجل الذي حمل أكثر من أي رجل آخر تطلعات العرب والمسلمين، كان عدواً لدوداً للإسلاميين. فقد حاولوا اغتياله وقام هو بإعدام عددٍ من قادتهم. إضافة إلى أنني أذكر، في ذلك الوقت، أن المنتسب لحركة إسلامية كان يُعتبر من قبل رجل الشارع عدواً للأمة العربية وعميلاً للغرب في أغلب الأحيان.

كل ذلك لنقول بأن النظر إلى الإسلام السياسي المعادي للحداثة والغرب بوصفه تعبيراً عفوياً وطبيعياً عن الشعوب العربية هو اختصار متسرع على الأقل.

تطلب الأمر أن يصل القادة القوميون وعلى رأسهم عبد الناصر إلى طريق مسدود، سواء بفشلهم العسكري المتتالي أو عدم قدرتهم على حل المسائل المرتبطة بالنمو، قبل أن يبدأ جزء هام من الناس

بالاستماع إلى خطاب الأصولية الدينية ونرى الحجب واللحى الاحتجاجية تنتشر بدءاً من السبعينيات.

أستطيع أن أستطرد بشكل مطول حول كل حالة، حالة مصر، والجزائر، وكل الحالات الأخرى، ورواية الأوهام والخيبات، الانطلاقات السيئة والخيارات المدمرة، فشل القومية والاشتراكية، وكل ما آمن به شبان هذه المنطقة على غرار الشبان في بقية العالم، من أندونيسيا إلى البيرو، ثم ماكفّوا عن الإيمان به.

أريد فقط أن أكرر هنا مراراً أن الأصولية ليست الخيار العفوي ولا الخيار الطبيعي أو الفوري للعرب أو المسلمين. قبل أن يُغويهم هذا الطريق كان لابد من انسداد كل الطرق الأخرى. وأن يظهر هذا الطريق الماضوي بشكل متناقض في سياق روح العصر.

III

زمن القبائل الكوكبية

1

إن مصطلح «روح العصر» ليس مفهوماً دقيقاً. وإن كنت استخدمه فلأشير إلى هذه الحقيقة المنتشرة والغامضة التي تجعل العديد من الأشخاص، في بعض حِقَب التاريخ، يبدؤون بإبراز عنصر من هويتهم على حساب العناصر الأخرى. هكذا أصبح تأكيد الانتماء الديني واعتباره العنصر الأساسي للهوية موقفاً شائعاً في أيامنا؛ وهو بالتأكيد أقل انتشاراً مما كان عليه منذ ثلاثة قرون، ولكنه حتماً أكثر انتشاراً مما كانه منذ خمسين عاماً.

كان يمكن أن أتحدث عن البيئة الفكرية أو المناخ العاطفي وهي مفاهيم تكاد تكون أقل غموضاً من روح العصر. ولكن ما يهم هو الأسئلة الحقيقية: ما الذي يجعل الرجال والنساء من كل الأصول وفي كل أنحاء العالم يعيدون اليوم اكتشاف انتمائهم الديني، ويشعرون أنهم مدفوعون إلى تأكيده بطرق مختلفة، في حين أن هؤلاء الأشخاص ذاتهم كانوا يفضلون منذ سنوات خلت أن يقدِّموا عليه، عفوياً، انتماءات أخرى؟ ماذا يدفع مسلماً يوغوسلافياً إلى الكف عن قوله بأنه يوغوسلافي ليؤكد أنه مسلم قبل كل شيء؟ وماذا يدفع عاملاً يهودياً اعتُبر طوال حياته في روسيا بروليتارياً لأن يؤكد أنه يهودي قبل أي شيء؟ كيف يحدث أن التأكيد المتعاظم للانتماء الديني الذي كان يبدو غير ملائم فيما مضى، يبدو اليوم طبيعياً ومشروعاً وفي العديد من الدول في الوقت ذاته؟

الظاهرة معقدة، ولايوجد أي تفسير يفسرها بطريقة مُرْضية
من البديهي أن تَراجُعَ العالم الشيوعي ثم انهياره لعبا دوراً حاسما في هذا التطور. فالماركسية تَعِدُ منذ أكثر من قرن بأن تؤسس على مجمل الكوكب مجتمعاً من نمط جديد تُستبعد منه فكرة الله. وكان من نتيجة فشل هذا المشروع على المستويات المعنوية والفكرية أن أعاد تأهيل المعتقدات التي أراد رميها في سلال مهملات التاريخ. وأن الدين، كملجأ روحي وملاذ للهوية، شكّل من بولونيا إلى أفغانستان، نقطة التقاء بديهية لكل الذين يناضلون ضد الشيوعية. كما أن هزيمة ماركس ولينين ظهرت وكأنها انتقام للأديان، وعلى الأقل كنصر للرأسمالية أو الليبرالية أو الغرب.

ولكن هذا العامل ليس الوحيد الذي لعب دوراً حاسماً في تنامي الظاهرة الدينية أثناء الربع الأخير من القرن العشرين. إن كانت الأزمة النهائية للعالم الشيوعي قد أثقلت وستثقل أيضاً على الجدل الفكري والسياسي، فهناك حقائق كثيرة ستبقى غير مفهومة إن لم نأخذ بعين الاعتبار عوامل أخرى، أولها الأزمة الأخرى التي يدعوها بعضهم بكل بساطة «الأزمة»، أي الأزمة التي تصيب الغرب.

لايمكن وضع هذه الأزمة على المستوى ذاته مع أزمة الشيوعية. فلا جدوى من إنكار أن الصراع المديد الذي وضع المعسكرين في مواجهة بعضهما قد أدى إلى وجود رابح وخاسر. ولكن لايمكننا أن ننكر أيضاً أن النموذج الغربي، رغم انتصاره، ورغم امتداد تأثيره إلى جميع القارات، يبدو كنموذج في أزمة، عاجز عن حل مشاكل الفقر في حواضره، وعاجز عن مواجهة البطالة والجنوح والمخدرات والعديد من الكوارث الأخرى. إضافة إلى أن أحد أكثر تناقضات هذا العصر إثارة للقلق هو أن نموذج المجتمع الأكثر جاذبية، والذي اكتسح كل النماذج الأخرى، يشكك بنفسه بعمق.

لنضع أنفسنا لحظة في مكان شاب في التاسعة عشر من عمره يدخل للتو إحدى جامعات الوطن العربي. في ما مضى كانت

ستجتذبه جماعة ماركسية تُبدي تفهماً لصعوبات وجوده وتعلمه مناقشة الأفكار على طريقتها؛ أو ربما كان انضم إلى منظمة قومية تلبي حاجته إلى الهوية وتحدثه عن النهضة والتحديث. أما اليوم فقد خسرت الماركسية من سحرها، كما خسرت القومية العربية، التي صادرتها بعض الأنظمة التسلطية العاجزة والفاسدة، مصداقيتها. ومن غير المستبعد أن يُعجب هذا الشاب بالغرب، بطريقة عيشه وإنجازاته العلمية والتكنولوجية ولكن لن يكون لهذا الاعجاب أي تأثير على التزامه، بما أنه لايوجد أي منظمة سياسية تجسد هذا النموذج. إن الذين يتطلعون إلى «الفردوس الغربي» ليس أمامهم من وسيلة غير الهجرة. إلا إذا كانوا ينتمون إلى إحدى طبقات الامتيازات التي تحاكي كيفما اتفق بعض مظاهر هذا النموذج. ولكن كل الذين ولدوا دون سيارة ليموزين تحت شرفتهم، وكل الذين يرغبون بقلب النظام القائم، وكل الذين يثورون ضد الفساد واستبداد الدولة واللامساواة والبطالة وغياب الأفق، وكل الذين يجدون مشقة في إيجاد مكانهم في عالم يتغير بسرعة، يغريهم المد الإسلامي. فمن خلاله يشبعون حاجتهم إلى الهوية، وحاجتهم إلى الانضواء في مجموعة، وحاجتهم الروحية، وحاجتهم إلى حل سهل لحقائق شديدة التعقيد، وحاجتهم إلى الفعل والتمرد.

وأنا أستعرض كل هذه الظروف التي تقود شبان العالم الإسلامي إلى الانخراط في الحركات الدينية ينتابني شعور بانزعاج عميق. يتأتى من أنني أشعر بنفسي عاجزاً، في الصراع الدائر بين الإسلاميين والقادة الذين يحاربونهم، عن التماهي مع أحد هذين المعسكرين. فأنا منيع على الخطاب الإسلامي الأصولي ليس فقط لأنني أشعر أنه لايعنيني كوني مسيحياً، ولكن لأنني لاأستطيع أن أقبل أن يفرض فريق ديني، ولو كان أكثرياً، شريعته على مجمل الناس. فأنا أرى أن استبداد الأكثرية ليس أفضل من سلطة الأقلية من الناحية الأخلاقية؛ ولأنني أؤمن بعمق أيضاً بالمساواة بين

الجميع، خاصة بين الرجال والنساء، وكذلك بحرية المعتقد وحرية كل فرد أن يحيا كما يريد، ولأنني أحْذر كل عقيدة تسعى إلى رفض قيم أساسية إلى هذا الحد.

بما أننا قلنا هذه الأمور بأكثر مايمكن من الوضوح لايسعني إلا أن أضيف بأن السلطات المستبدة التي تحارب الإسلاميين ليست بأفضل منها في نظري، وإني أرفض تأييد الابتزاز الذي يرتكبونه بذريعة أنه أهون الشّرين. هذه الشعوب تستحق أفضل من أهون الشرين، وأفضل من «السبيل الوحيد»، فهي تحتاج إلى حلول حقيقية لايمكن أن تكون غير الديمقراطية الحقيقية والحداثة الحقيقية، أي حداثة متكاملة ومقبولة من الجميع بدلاً من حداثة مجتزأة ومفروضة بالقوة. ويبدو لي أنه من خلال طرح نظرة مختلفة لمفهوم الهوية نستطيع المساهمة، خارج المأزق، في رسم طريق حرية إنسانية.

أُنهي الاستطراد للعودة إلى «روح العصر»... ولأقول إنه إذا كان من الممكن تفسير التنامي الديني، جزء منه بفشل الشيوعية، وجزء منه بالمأزق الذي وصلت إليه مختلف مجتمعات العالم الثالث، وجزء منه بالأزمة التي تصيب النموذج الغربي، لايمكن فهم اتساع الظاهرة وشدتها دون العودة إلى التطور الأخير المذهل في مجال الاتصالات ومجمل ما اتفق على تسميته بالعولمة.

يوضح المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في نص نشر في 1973 أن مسار الإنسانية قد جرى على ثلاث مراحل متتالية.

أثناء المرحلة الأولى التي تعود إلى ماقبل التاريخ كانت الاتصالات بطيئة للغاية ولكن تطورات المعرفة كانت تسير ببطء أكثر أيضاً، بحيث أن كل جديد كان أمامه مايكفي من الوقت لينتشر عبر العالم قبل أن يطرأ جديد آخر. كما أن المجتمعات الإنسانية كانت تمتلك الدرجة ذاتها من التطور تقريباً، والكثير من الخصائص المشتركة.

أثناء الحقبة الثانية كان تطور المعارف أسرع من انتشارها بحيث أن المجتمعات الإنسانية أصبحت أكثر فأكثر تمايزاً في كل المجالات. وقد دامت هذه الفترة عدة آلاف من السنوات تعود إلى ماندعوه التاريخ.

ثم بدأت مؤخراً حقبة ثالثة هي حقبتنا التي تتقدم أثناءها المعارف بالتأكيد بصورة متسارعة، ولكن انتشار المعارف يسير بصورة أسرع أيضاً، لدرجة أن المجتمعات الإنسانية ستجد نفسها أقل فأقل تمايزاً.

نستطيع أن نناقش مطولاً صحة هذه النظرية التي عَرَضتُها على نحو مبسط. ولاأهدف لأن أجعل منها برهاناً. فالأمر برأيي لايعدو كونه عرضاً جذاباً ومنشطاً ذهنياً لما نشهده اليوم من حولنا.

من البديهي أن هذا المزج العالمي للصور والأفكار، الذي لايكف عن التوسع والذي لايبدو أن أحداً يستطيع أن يسيطر عليه، سيحوّل بعمق، وبفترة وجيزة جداً من وجهة نظر تاريخ الحضارات، معارفنا ومداركنا وسلوكاتنا. ومن المحتمل أن يحوّل بعمق أيضاً نظرتنا لأنفسنا وانتماءاتنا وهويتنا. وإذا عممنا قليلاً، انطلاقاً من فرضية توينبي، نستطيع القول أن كل ماصنعته المجتمعات الإنسانية خلال قرون لتُبرز اختلافاتها ولترسم حدوداً بينها وبين الآخرين سيخضع لضغوط ترمي بالتحديد إلى تقليص هذه الاختلافات ومحو هذه الحدود.

إن هذا التحوّل الذي لاسابق له، والذي يجري أمام أعيننا بألف دوي وألف ومضة، والذي مازال يتسارع، لايمر دون صدمات. بالتأكيد نحن نتقبل كثيراً من الأشياء التي يقدمها لنا العالم المحيط بنا، إما لأنها تبدو مفيدة وإما لأنها تبدو محتمة. ولكن يحدث لكل منا أن يثور عندما يشعر أن خطراً يهدد عنصراً هاماً من هويته كلغته أو ديانته أو مختلف رموز ثقافته أو استقلاله. كما أن المرحلة الحالية تجري تحت العلامة المزدوجة للتناغم والتنافر. لم يمتلك

الرجال يوماً هذا القدر من الأشياء المشتركة ومن المعا المشتركة ومن المصادر المشتركة والصور والكلمات والأدوا المشتركة لكن هذا يدفع بعضهم إلى تأكيد اختلافهم أكثر.

يمكن رؤية ما عبّرت عنه للتو بالعين المجردة. لاشك أ العولمة المتسارعة تسبب، كرد فعل، تعزيزاً للحاجة إلى الهوية. كما أن القلق الوجودي الذي يرافق التغيرات المفاجئة على هذا النحو يعزز الحاجة إلى الروحانية. والحال أن الانتماء الديني هو الوحيد الذي يقدم، أو يسعى لأن يقدم، إجابة على هاتين الحاجتين.

لقد استعملت للتو عبارة «رد فعل». ومن الأفضل أن أوضّح أنها لايمكن أن تُفسِّر وحدها مجمل الظاهرة. يمكننا بالتأكيد أن نتحدث عن «رد فعل» بكل ما للعبارة من معنى عندما تبحث مجموعة إنسانية أفزعها التغيير عن ملجأ في قيم ورموز موروث قديم. ولكن يبدو لي أن هناك في صعود الديني أكثر من مجرد رد فعل، ربما محاولة للتأليف بين الحاجة إلى الهوية ومطلب العالمية. إن جماعات المؤمنين تبدو في الواقع كقبائل كوكبية، وأقول قبائل بسبب مضمون هويتها ولكني أقول أيضاً كوكبية لأنها تجتاز الحدود بسهولة. إن الانتماء إلى عقيدة تتسامى بالانتماءات القومية والعرقية والاجتماعية، يبدو في نظر بعضهم كأنه طريقتهم الخاصة لكي يظهروا عالميين. هكذا يصبح الانتماء إلى جماعة من المؤمنين، نوعاً ما، الخصوصية الأكثر شمولية والأكثر عالمية، أو ربما يجب القول إنها العالمية الأكثر واقعية والأكثر «طبيعية» والأكثر تجذراً.

مهما كانت الصياغة المناسبة، مايهم الإشارة إليه هو أن شعور الانتماء إلى جماعة دينية، كما يتجلى اليوم، ليس مجرد عودة إلى وضع سابق. فنحن لانشهد فجر زمن القوميات بل نهايته. ولانشهد فجر زمن الأممية، على الأقل في صيغتها البروليتارية، بل انحطاطها أيضاً. كما أنه لايمكن اعتبار شعور الانتماء إلى الدين أولاً، بكل استهزاء، لحظة تاريخية سيتم تجاوزها قريباً. لأن

السؤال الذي لامفر منه هو تجاوزها نحو ماذا؟ إلى عصر جديد للقوميات؟ وهو أمر يبدو لي غير محتمل، بل غير مرغوب فيه، إضافة إلى أن شعور الانتماء إلى عقيدة مشتركة هو اليوم الرباط الأوثق للقوميات، وحتى للذين يعتبرون أنفسهم علمانيين. ويصح هذا أيضاً على الأتراك أو الروس مثلما على اليونانيين أو البولونيين أو الإسرائيليين وعلى كل الآخرين الذين ينفرون من قبوله.

نحو ماذا إذاً سنتجاوز الانتماء الديني؟ وأي انتماء آخر سيتمكن من جعله مهملاً كما كان يبدو حتى عهد قريب.

2

عند هذا الحد من الاستدلال لابد من توضيح لكي نتجنب سوء فهم خطير. عندما أتحدث عن تجاوز الانتماء الديني لاأريد أن أقول بأنه ينبغي تجاوز الدين ذاته. بالنسبة لي لن يتراجع الدين أبداً إلى منسيات التاريخ، لا بالعلم ولا بأية عقيدة أخرى ولابأي نظام سياسي. كلما تقدم العلم كان على الإنسان أن يتساءل أكثر عن غائيته. إن إله الـ «كيف» سيتلاشى يوماً ما ولكن إله الـ «لماذا» لن يموت أبداً. ربما لايكون لنا بعد ألف عام الديانات ذاتها التي نعرفها اليوم، ولكني لاأتخيل العالم دون أي شكل من أشكال الدين.

أسارع لأضيف، من وجهة نظري، أن الحاجة إلى الروحانية لايجب أن تعبّر عن نفسها بالضرورة من خلال الانتماء إلى جماعة من المؤمنين. يوجد هنا في الواقع تطلعان عميقان كلاهما طبيعي ومشروع وبدرجات مختلفة ولكن من السيء الخلط بينهما. فمن جهة هناك التطلع إلى رؤية للعالم تتسامى بوجودنا وآلامنا وآمالنا وتعطي معنى، وإن كان وهمياً، للحياة والموت؛ ومن الجهة الأخرى حاجة كل إنسان إلى الشعور بارتباطه بجماعة تقبله وتعترف به ويستطيع في كنفها أن يُفْهم بسرعة.

لاأحلم بعالم لامكان للدين فيه، وإنما بعالم تنفصل فيه الحاجة إلى الروحانية عن الحاجة إلى الانتماء. بعالم لايستشعر فيه الإنسان، مع بقائه متعلقاً بمعتقداته وعبادته وقيمه الأخلاقية

المستلهمة من كتاب مقدس، بالحاجة للانضمام إلى أخوته في الدين. بعالم لايُستخدم فيه الدين وشيجة بين اثنيات متحاربة. لايكفي فصل الكنيسة عن الدولة؛ إن فصل الديني عما يتعلق بالهوية لايقل أهمية. وإذا كنا نريد حقاً تجنب أن يستمر هذا الخليط بتغذية التعصب والرعب والحروب الاثنية، يجب التمكن من إشباع الحاجة إلى الهوية بطريقة أخرى.

وهذا مايرُدّني إلى تساؤلي الأولي: بماذا يمكن اليوم استبدال الانتماء إلى مجموعة من المؤمنين؟

تكمن الصعوبة التي تطرحها الصفحات السابقة في أن هذا الانتماء يبدو الانتماء الأعلى والأثبت والأكثر تجذراً، وهو الوحيد القادر على سد الكثير من الحاجات الأساسية للإنسان ولن تستطيع انتماءات تقليدية أخرى، كالوطن والاثنية والعرق والطبقة، أن تحل مكانه لزمن طويل، فكلها أكثر ضيقاً ومحدودية دون أن تقل فتكاً. إن كان لابد من تجاوز الانتماء إلى «قبيلة كوكبية» فلن يكون ذلك إلا صوب انتماء أكثر اتساعاً أيضاً ويحمل رؤية انسانية أكثر اكتمالاً.

بالتأكيد سيقال ماهو هذا الانتماء الأكثر اتساعاً؟ وماهي تلك «الرؤية الإنسانية»؟ يكفي أن نجول بنظرنا حول العالم لنتبين أنه لايوجد أي انتماء جديد قادر على أن يوازن الانتماءات القوية العميقة التي أثبتت قدرتها على تعبئة الناس على مدى التاريخ. عدا عن أن كل رؤيا تسعى لأن تكون شاملة تستثير اليوم حذر معاصرينا إما لأنها تبدو لهم ساذجة أو لأنها تبدو لهم خطرة على هويتهم.

لاشك أن الحذر هو إحدى الكلمات الأساسية في زمننا. الحذر من الإيديولوجيات ومن الأيام القادمة المشرقة، والحذر من السياسة والعلم والعقل والحداثة. الحذر من فكرة التقدم وعملياً من كل ما استطعنا أن نؤمن به طوال القرن العشرين، قرن من الانجازات العظيمة التي لاسابق لها منذ فجر الأزمنة، ولكنه قرن من الجرائم

التي لاتغتفر والآمال الخائبة، والحذر أيضاً من كل مايبدو شمولياً أو عالمياً أو كوكبياً.

لسنوات قليلة خلت كان العديد من الناس مستعدين لقبول فكرة انتماء كوكبي يُعتبر بشكل ما النهاية الطبيعية للتاريخ البشري: هكذا يصبح المقيم في تورينو، بعد أن كان بياموتنياً ثم إيطالياً، بالتدريج، مواطناً أوروبياً ثم مواطناً عالمياً. أبسِّط الأمور إلى أقصى حد، ولكن فكرة السير النهائي صوب انتماءات أكثر فأكثر اتساعاً لم تكن تبدو مبالغاً فيها. ستبلغ الإنسانية يوماً التجمع النهائي من خلال تجمعات إقليمية متتابعة. وقد طُرحت نظريات جذابة جداً عن النظامين المتخاصمين، الرأسمالي والشيوعي، اللذين يجب أن يلتقيا، وتحوّل الأول شيئاً فشيئاً إلى الاشتراكية وتخلي الثاني تدريجياً عن النظام الموجَّه ليشكلا نظاماً واحداً. وكذلك بالنسبة للأديان التي كانوا يتنبؤون بأنها ستلتقي في توفيقية واسعة مريحة.

نعرف اليوم أن التاريخ لايتبع أبداً الطريق الذي يُرسم له. ليس لأنه زَوَغاني أو عصي على الفهم أو غامض، وليس لأنه لايخضع للمنطق الإنساني، بل لأنه بالضبط مايصنعه منه الناس ولأنه حصيلة كل أفعالهم الفردية أو الجماعية، وكل أقوالهم ومبادلاتهم ومواجهاتهم وآلامهم وأحقادهم وميولهم. كلما كثر صانعو التاريخ وكانوا أحراراً كان حاصل أفعالهم معقداً وتصعب الإحاطة به وعصياً على النظريات التبسيطية.

يتقدم التاريخ في كل لحظة على عدد لامتناه من الدروب. هل يمكن أن نستخلص من ذلك، رغم كل شيء، معنى ما؟ بالتأكيد لن نعرف إلا عند «الوصول». هذا إذا كان لهذه الكلمة من معنى.

هل سيكون المستقبل مستقبل آمالنا أم كوابيسنا. هل سيكون مصنوعاً من الحرية أم من العبودية؟ وهل سيكون العالم، في نهاية الأمر، أداة خلاصنا أم أداة فنائنا؟ هل كنا الأعوان الملْهَمين لخالق

أوحد، أو سحرة مبتذلين خرجت الأمور عن سيطرتهم؟ هل نتجه صوب عالم أفضل أم صوب «أفضل العوالم»؟

ولكن لنتساءل أولاً ما الذي تخفيه لنا العقود القادمة؟ «صراع حضارات» أم سَكينة «القرية الكوكبية».

إن قناعتي العميقة هي أن المستقبل غير مدوّن في أي مكان، وأن المستقبل سيكون مانصنعه نحن منه.

وقد يتساءل بعضهم: وماذا عن القدر؟ وهم بذلك يغمزون من أصلي الشرقي. وقد اعتدت أن أجيب أن القدر بالنسبة للإنسان كالهواء بالنسبة للشراع. من يجلس على الحافة لايستطيع أن يقرر من أين يأتي الهواء ولابأية قوة ولكنه يستطيع أن يوجه شراعه. ويسبب هذا في بعض الأحيان فرقاً هائلاً. إن الهواء الذي يؤدي إلى مقتل بحار قليل الخبرة أو متهور أو سيء التقدير هو ذاته الذي يقود بحاراً آخر إلى بر الأمان.

لاأرغب بالاكتفاء بهذه الصورة البحرية التي لها حدودها، إذ يبدو لي من الضروري التعبير عن الأشياء بصورة أوضح. فأمام التقدم التكنولوجي الرائع الذي يتسارع منذ عدة سنوات، والذي حوَّل حياتنا جذرياً خاصة في مجال الاتصال والوصول إلى المعرفة، لن يفيدنا في شيء أن نتساءل ما إذا كان «جيداً» أم «سيئاً» بالنسبة لنا. وهو ليس مشروعاً مطروحاً للاستفتاء بل هو حقيقة. ومع ذلك فالطريقة التي سيؤثر فيها على مستقبلنا مرهونة بنا إلى حد كبير.

ينزع بعضهم إلى رفض كل شيء دفعة واحدة، وإلى التدثر بهويتهم مطلقين لعنات مؤثرة ضد العولمة والتكوكب والغرب المسيطر وأميركا التي لاتُحتَمل. وبعضهم الآخر، على العكس، مستعد لقبول كل شيء وابتلاع كل شيء دون تمييز إلى درجة ألّا يعرفوا من هم ولا إلى أين يذهبون أو إلى أين يذهب العالم! إنهما موقفان على طرفي نقيض ولكنهما ينتهيان إلى التلاقي لأنهما

يتميزان بالانقياد. فالموقفان، المر والمعسول، المتذمر والا...
ينطلقان من الفرضية ذاتها، وهي أن العالم يتقدم كالقطار على سـ...
وأن لاشيء يمكنه أن يحرفه عن مساره.

ولكن شعوري مختلف. يبدو لي أن «رياح» العولمة قد تقودنا فعلياً إلى الأسوأ، ولكن قد تقودنا إلى الأفضل أيضاً. إذا قادتنا وسائل الاتصال الجديدة التي تقرب مابين البشر بسرعة كبيرة إلى تأكيد اختلافاتنا، كردة فعل، ستجعلنا ندرك أيضاً مصيرنا المشترك. وهو ما يدفعني إلى التفكير بأن التطور الحالي قد يؤهل قريباً إلى انبثاق مقاربة جديدة لمفهوم الهوية، هوية تُدرك بوصفها حصيلة كل انتماءاتنا، ويأخذ الانتماء إلى الجماعة الإنسانية في إطارها أهمية متزايدة بحيث يصبح يوماً ما الانتماء الرئيسي دون أن يؤثر مع ذلك على انتماءاتنا العديدة الخاصة. بالتأكيد لن أصل إلى حد القول إن «رياح» العولمة تدفعنا بشكل إجباري في هذا الاتجاه، ولكن يبدو لي أنها تجعل البدء بمثل هذه المقاربة أقل صعوبة، وضرورية في الوقت ذاته.

3

يقول المؤرخ مارك بلوخ: «إن الرجال هم أبناء عصرهم أكثر من كونهم أبناء آبائهم». ولاشك أن هذا الأمر صحيح دائماً ولكنه لم يكن يوماً صحيحاً مثلما هو اليوم. هل من الضروري أن نذكّر أيضاً إلى أي حد سارت الأمور بسرعة، سرعة متزايدة، في العقود الأخيرة؟ مَن مِن معاصرينا لم يتولد لديه الانطباع من وقت لآخر بأنه شهد من التغيرات في سنة أو سنتين ماكانت في الماضي تمتد على مدى قرن؟ والأكبر سناً بيننا يحتاجون جهداً كبيراً من الذاكرة ليستعيدوا الحالة الروحية التي عرفوها في طفولتهم وغض النظر عن العادات التي اكتسبوها والأدوات والمنتجات التي لم يعد في مقدورهم الاستغناء عنها. أما فيما يخص الشبان فليس لديهم أية فكرة عن حياة أجدادهم أو حياة الأجيال السابقة.

الواقع أننا جميعاً أقرب إلى معاصرينا مما نحن إلى أجدادنا. هل أبالغ إن قلت بأنني أمتلك مع أي عابر تختاره بالمصادفة في أحد شوارع براغ أو سيول أو سان فرانسيسكو أشياء مشتركة تفوق بكثير ما يوجد بيني وبين جدي الأكبر؟ ليس فقط في المظهر والملبس والمسلك، ليس فقط في طريقة العيش والعمل والمسكن والأدوات التي تحيط بنا، وإنما في المفاهيم الأخلاقية أيضاً وعادات التفكير.

كذلك فيما يخص المعتقدات. لاجدوى من أن نقول إننا مسيحيون أو مسلمون أو يهود أو بوذيون أو هندوس لأن رؤيتنا للعالم وكذلك للماوراء لاتمتّ بأية صلة البتة «لأخوتنا في الدين» الذين كانوا يعيشون منذ خمسمئة سنة. بالنسبة لغالبيتهم الكبرى كان الجحيم مكاناً لايقل حقيقة عن آسيا الصغرى أو أثيوبيا، مع شياطين أقدامهم ظَلفاء يدفعون الخطاة إلى النار الأبدية كما في اللوحات التي تمثل القيامة. لايوجد اليوم، تقريباً، من يرى الأمور على هذا النحو. لقد أخذتُ الصورة الأكثر كاريكاتورية ولكن الأمر لايقل صحة فيما يخص مجمل مفاهيمنا وفي كل المجالات. إن الكثير من التصرفات المقبولة تماماً اليوم بالنسبة للمؤمن كانت ستكون غير معقولة «لأخوته في الدين» قديماً. وقد كتبت هذه الكلمة من جديد بين قوسين لأن أجداده ماكانوا يمارسون الديانة ذاتها التي نمارسها نحن. لو كنا نعيش بينهم مع تصرفاتنا اليوم لرُجمنا جميعاً في الشارع، أو أُلقي بنا في زنزانة، أو أحرقنا على المحرقة بتهمة الكفر أو الفجور أو الهرطقة أو الشعوذة.

ومجمل القول إن كلاً منا مؤتمن على إرثين: أحدهما «عمودي» يأتيه من أسلافه وتقاليد شعبه وجماعته الدينية. والآخر «أفقي» يأتيه من عصره ومعاصريه. ويبدو لي أن هذا الأخير هو الأكثر حسماً وأهميته تتصاعد يومياً؛ ومع ذلك لاتنعكس هذه الحقيقة على إدراكنا لذواتنا. فنحن لانستند إلى إرثنا «الأفقي» بل إلى الآخر.

ولكن اسمحوا لي بالتشديد على النقطة الأساسية بما أننا ننكب على مفهوم الهوية كما يتبدى في أيامنا. هناك من جهة مانحن عليه وما نصبحه تحت تأثير العولمة الثقافية، أي بشر مصنوعون من خيوط من كل الألوان يتقاسمون مع معاصريهم الأساسي من مرجعياتهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم. ثم يوجد من جهة أخرى

مانظن أننا عليه وماندعي كونه، أي أعضاء في هذه الجماعة وليس في تلك، وأتباعاً لهذه العقيدة بدلاً من تلك. لانقصد أن ننكر أهمية انتماءاتنا الدينية والقومية. ولانقصد أن ننكر التأثيرالحاسم الذي يمارسه إرثنا العمودي. يتعلق الأمر في هذه المرحلة بتسليط الضوء على حقيقة وجود هوة بين ما نحن عليه ومانظن أننا عليه.

والحق أننا إذا كنا نؤكد اختلافاتنا بمثل هذا السخط فلأننا نشعر أن اختلافاتنا تتناقص. ولأن كل يوم يمر، بغض النظر عن صراعاتنا وعداواتنا القديمة، يقلّص من اختلافاتنا ويزيد قليلاً من تشابهاتنا.

يبدو أنني أبتهج للأمر. هل أن رؤية الناس تتشابه بشكل متزايد تدعو إلى الابتهاج؟ ألسنا في طريقنا إلى عالم رمادي لانتحدث فيه إلا لغة واحدة، ويتقاسم الجميع حزمة المعتقدات الضئيلة ذاتها، ويشاهد الجميع على التلفاز المسلسلات الأميركية ذاتها وهم يمضغون السندويشات ذاتها.

بعيداً عن الكاريكاتور، يستحق السؤال أن يُطرح بشكل جدي. فنحن في الحقيقة نجتاز عصراً محيراً تظهر فيه العولمة في نظر عدد كبير من أمثالنا ليس كمزج رائع يغني الجميع، بل كتنميط مفقرٍ وتهديد يجب مقاومته لكي نحافظ على ثقافتنا الخاصة وهويتنا وقيمنا.

ربما هي معارك متأخرة ولكن علينا في الوقت الحالي أن نتواضع ونعترف بأننا لانعرف عنها شيئاً. لانجد دائماً في مزابل التاريخ مانتوقع وجوده فيها. ثم إذا كان هناك كثير من الأشخاص الذين يرون أن العولمة تهددهم فمن الطبيعي أن يتم تفحص التهديد المذكور عن قرب.

بالتأكيد نستطيع أن نكشف عند الذين يشعرون أنهم في خطر الخوف من التغيير، القديم قدم الإنسانية. ولكن هناك أيضاً مخاوف

أكثر معاصرة ولاأجروٌ على القول بأنها غير مسوَّغة. لأن العولمة تقودنا بحركة واحدة صوب حقيقتين متناقضتين، واحدة مرحب بها برأيي، والأخرى مرفوضة وأعني العالمية والتنميط. وهما طريقان يبدوان لنا متداخلين وغير متمايزين كما لو أن الأمر يتعلق بطريق واحد. لدرجة أنه يمكننا أن نتساءل ما إذا كان أحدهما بكل بساطة الوجه المقبول للآخر.

أنا مقتنع من جهتي بأن الأمر يتعلق بطريقين مختلفين رغم أنهما يتحاذيان ويتلامسان ويتقاطعان على مد النظر. سيكون من الوهمي أن نرغب بفصل الخيوط المتشابكة فوراً، لكننا نستطيع أن نحاول سحب الخيط الأول.

4

تعتبر الفرضية الأساسية للعالمية أن هناك حقوقاً ملازمة لكرامة الإنسان لايحق لأحد أن ينكرها على أمثاله بسبب ديانتهم أو لونهم أو قوميتهم أو جنسيتهم أو أي سبب آخر. وهذا يعني، من بين مايعنيه، أن كل مساس بالحقوق الأساسية للرجال والنساء باسم هذا التقليد الخاص أو ذاك، ديني مثلاً، منافٍ لروح العالمية. لايمكن أن توجد شرعة شاملة لحقوق الإنسان من جهة، وشرعات خاصة من جهة أخرى، شرعة مسلمة، وشرعة يهودية، وشرعة مسيحية، وشرعة أفريقية، وشرعة آسيوية الخ.

من حيث المبدأ، قلة يرفضون الأمر. أما من حيث الممارسة فالكثيرون يتصرفون كما لو أنهم لايؤمنون به أبداً. على سبيل المثال لاتلقي أية حكومة غربية على حقوق الإنسان في أفريقيا والعالم العربي نظرة متطلبة كالتي تخص بها بولونيا وكوبا. وهو موقف يدّعي الاحترام ولكنه في نظري محتقِر بعمق. أن نحترم أحدهم ونحترم تاريخه هو أن نعتبره ينتمي إلى الإنسانية ذاتها وليس إلى إنسانية مختلفة، إلى إنسانية رخيصة.

لاأريد التوسع حول هذه المسألة التي تستحق لوحدها معالجة مطوّلة تستند إلى براهين. ولكني متمسك بإثارتها هنا لأنها أساسية لمفهوم العالمية، الذي يفقد معناه إذا لم يفترض وجود قيم تخص كل الكائنات الإنسانية دون أي تمييز. فهذه القيم تتصدر كل شيء.

لاتستحق التقاليد أن تُحترم إلا بقدر ما هي جديرة بالاحترام، أي بذات الدرجة التي تَحترم فيها الحقوق الأساسية للرجال والنساء. إن احترام تقاليد أو قوانين تمييزية هو احتقار لضحاياها. كل الشعوب والعقائد أنتجت في فترات من تاريخها تصرفات تكشَّف مع تطور الذهنيات أنها لاتتفق مع الكرامة الإنسانية. وهي لم تُستبعد بجرة قلم في أي مكان، ولكن هذا لايعفي من استنكارها والعمل على إلغائها.

كل مايتعلق بالحقوق الأساسية، كحق المرء في العيش كمواطن كامل الحقوق على أرض آبائه دون الخضوع لأي ملاحقة أو تمييز، وحق المرء في العيش بكرامة حيث يوجد، وحق اختيار المرء لحياته ومشاعره ومعتقداته بحرية، في إطار احترام حرية الآخر، والحق في الحصول دون عقبات على المعرفة والصحة وحياة كريمة ومحترمة، كل ذلك، والقائمة غير محدودة، لايمكن إنكاره على أمثالنا بحجة حماية معتقد أو ممارسة سلفية أو تقليد. في هذا المجال يجب الميل صوب العالمية وحتى صوب النمطية إذا تطلب الأمر، لأن الإنسانية، مع كونها متعددة، هي واحدة قبل كل شيء.

وخصوصية كل حضارة؟ يجب احترامها بالتأكيد، ولكن بطريقة مختلفة دون أن يتخلى المرء أبداً عن وضوح الرؤية.

وبموازاة المعركة من أجل عالمية القيم لابد من مقاومة التماثل المُفقِر والهيمنة الايديولوجية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاعلامية والإجماع المبلد، وكل مايخنق التعبيرات اللغوية والفنية والفكرية المتعددة، وكل مايسير في اتجاه عالم رتيب وقاصر. إنها معركة من أجل الدفاع عنٍ بعض الممارسات وبعض التقاليد الثقافية ولكنها معركة دقيقة متطلِّبة وانتقائية، دون تردد، ودون مخاوف زائدة، منفتحة باستمرار على المستقبل.

إن سيلاً من الصور والأصوات والأفكار والمنتجات المتنوعة يُغرق الكوكب بكامله، ويغير يوماً بعد يوم أذواقنا وتطلعاتنا وتصرفاتنا وطريقة عيشنا ورؤيتنا للعالم وكذلك رؤيتنا لذاتنا.

وتُستنتج من هذا التمازج الرائع حقائق متناقضة في كثير من الأحيان. على سبيل المثال، صحيح أننا نجد اليوم في الشوارع الرئيسية لباريس أو موسكو أو شانغهاي أو براغ العلامات المعروفة لمطاعم الوجبات السريعة ولكن من الصحيح أيضاً أننا نرى بشكل متزايد، في كل القارات، المأكولات الأكثر تنوعاً، ليس الإيطالية والفرنسية فقط، والصينية أو الهندية، التي تُستورد منذ زمن طويل بل اليابانية أيضاً والأندونيسية والكورية والمكسيكية والمغربية واللبنانية.

بعضهم لايجد في ذلك إلا تفصيلاً إضافياً. ولكنه ظاهرة لها دلالتها في نظري. فهي تكشف عما يعنيه الامتزاج في الحياة اليومية. وتكشف عما يمكن أن تكونه ردات فعل بعضهم وبعضهم الآخر. في الواقع كم من الناس لايرون في كل هذا التطور إلا مظهراً واحداً وهو ولع بعض الشبان بالوجبات السريعة على الطريقة الأميركية. لست من أنصار الاستسلام وكلي تقدير للذين لايستسلمون. إن المقاومة من أجل الحفاظ على الطابع التقليدي لشارع أو حي أو نوعية حياة ما، هي معركة مشروعة وضرورية غالباً. ولكن يجب ألّا تمنعنا من رؤية المشهد كاملاً.

يجب أن أعترف أنه لايقلقني ولايحزنني أن يستطيع المرء في كل العالم أن يأكل إذا رغب على طريقة البلد، أو أن يجرب أيضاً مأكولات أخرى بما فيها مطبخ الولايات المتحدة، أو أن يفضل البريطانيون الكاري على صلصة النعناع، أو أن يطلب الفرنسيون أحياناً الكسكسي بدلاً من البوتيه، وأن يتدبر أحد سكان مينسك بعد عقود من الحياة الكئيبة رفاهية هامبرغر بالكاتشب. على العكس، أريد لهذه الظاهرة أن تتوسع أكثر وأريد لكل مطبخ سواء أتى من سيشوان أو حلب أو شامبانيا أو البوي أو هانوفر أو ميلووكي أن يكون مرغوباً في العالم أجمع.

أستطيع تعميم ما أقوله عن فن الطبخ ليشمل مظاهر أخرى للثقافة اليومية كالموسيقا مثلاً. هنا أيضاً نشهد تنوعاً عجيباً. غالباً

ما تأتينا من الجزائر أكثر الأنباء المروعة، ولكن ينبثق منها أيضاً موسيقا إبداعية ينشرها كل هؤلاء الشبان الذين ينطقون بالعربية أو الفرنسية أو القبايلية. بعضهم بقي في البلد رغم كل شيء في حين رحل بعضهم حاملين معهم وفي داخلهم حقيقة شعب وروح ثقافة يدلون بشهاداتهم عنها.

وتذكرنا مسيرتهم بمسيرة أقدم وأوسع، وهي مسيرة الأفارقة الذين اقتيدوا كعبيد إلى الأميركيتين. إذ نشهد اليوم موسيقاهم التي خرجت من لويزيانا أو من الكاريبي عبر العالم وقد باتت تشكل جزءاً من إرثنا الموسيقي والوجداني. وهذه هي العولمة أيضاً. لم تمتلك الإنسانية في الماضي مثل هذه الوسائط التقنية لتسمع كل هذه الأنواع الموسيقية، وساعة تشاء، كل تلك الأصوات الآتية من الكاميرون أو إسبانيا أو مصر أو الأرجنتين أو البرازيل أو كاب ـ فير وكذلك من ليفربول أو ممفيس أو بروكسل أو نابولي. لم يحصل مثل هذا العدد من الأشخاص في يوم من الأيام على إمكانية أن يعزفوا ويؤلفوا ويغنوا ويحققوا مثل هذا الاستماع.

5

إن كنت أشدد على مايبدو في نظري أحد حسنات العولمة وعنصر عالمية أصيل، فلا أريد أن أسكت عن قلق الذين يرون في هذا التنامي ظاهرة أقل أهمية بكثير من السيطرة المتنامية للأغنية الأنكلوساكسونية. وهو قلق نشاهده كذلك في مجالات عديدة أخرى عندما نذكر على سبيل المثال تأثير بعض وسائل الإعلام الدولية، وفيما يخص السينما أيضاً، حيث تمتلك هوليود وزناً ساحقاً.

لقد تحدثت عن قلق. والحق إنها كلمة مبهمة لاتعبّر عن التنوع الشديد في ردات الفعل. بين صاحب مقهى باريسي يتضايق لأنه يسمع القليل جداً من الأغاني الفرنسية على الراديو، وداعية متعصب ينعت الصحون اللاقطة بالشيطانية لأنها تنقل، حسب رأيه، أغنية حوريات الغرب، لايوجد شيء مشترك، باستثناء بعض الحذر ربما في وجه الثقافة الشمولية كما تترسخ اليوم. على أية حال، فيما يخصني، أستطع القول إن هذين القلقين يقلقاني، ليس بالتساوي وإنما بالتزامن. فأنا لاأرغب بعالم عربي ساخط على الحداثة ويتراجع، ولا أرغب كذلك بفرنسا خائفة تدخل الألفية القادمة بخطى مترددة.

أما بعد. أكرر بأن المخاوف التي تستثيرها العولمة وإن كان فيها بعض المغالاة أحياناً إلا أنني لاأعتبرها دون أساس. ويبدو

لي أنها نوعان. وأكتفي بالإشارة إلى النوع الأول باختصار لايفي حقه لأنه يتجاوز إطار هذه المقالة. وهي الفكرة القائلة بأن الغليان الحالي بدلاً من أن يؤدي إلى غنى هائل وتعدد أشكال التعبير وتنوع الآراء، يقود بشكل متناقض إلى العكس، إلى الإفقار. هكذا لن يؤدي تكاثر التعابير الموسيقية المنفلتة في نهاية الأمر إلّا إلى نوع من الموسيقا الباهتة والمصطنعة. كذلك لن يؤدي التمازج الرائع بين الأفكار إلا إلى رأي جماعي تبسيطي، نوع من القاسم الفكري المشترك. بحيث ينتهي كل العالم قريباً، باستثناء حفنة من الأصيلين، إلى قراءة الروايات المنمطة ذاتها، هذا إذا كانوا يقرؤون، والاستماع إلى الألحان المتشابهة التي تُصَبّ بالأطنان. وإلى مشاهدة أفلام أُنتجت وفقاً للمخطط ذاته، وبكلمة واحدة إلى ابتلاع ذلك الحساء السيء من الأصوات والصور والمعتقدات.

ويمكن التعبير عن القلق ذاته فيما يخص وسائل الإعلام. نتخيل أحياناً أننا سنستمع مع هذا العدد من الجرائد والإذاعات والتلفزيونات إلى عدد لايحصى من الآراء المختلفة. ثم نكتشف أن ما يحدث هو العكس. إذ كل ماتفعله هذه الأبواق هو تضخيم الرأي السائد حالياً لدرجة أنه يطغى على أي صوت آخر. والواقع أن تدفق الصور والكلمات لايترك مجالاً للحس النقدي.

هل نستخلص أن هذه الوفرة بدلاً من أن تكون عامل تنوع ثقافي، تؤدي في الواقع بفضل قانون خفي إلى التماثل؟ لاشك أن الخطر موجود. وهو مانستشفه من تسلط مستويات الاستماع وانحرافات «الصحيح سياسياً». ولكنه الخطر الملازم لكل نظام ديمقراطي؛ ويمكن أن نخشى الأسوأ إذا وقعنا تحت سطوة العدد، بالمقابل لن تكون الهاوية محتمة إذا استخدمنا طُرق التعبير المتوافرة لدينا بدراية. وإذا عرفنا كيف نرى، خلف الحقيقة التبسيطية للأرقام، حقيقة البشر المعقدة.

هل يجب أن نذكّر بأننا لم نعد في عصر الجماهير، رغم بعض المظاهر، وإنما في عصر الأفراد. من هذا المنظور أقول بأن

الإنسانية حاذت أثناء القرن العشرين أخطر المنعطفات في تاريخها واجتازتها أفضل مما كان متوقعاً.

رغم أن سكان الكوكب قد تضاعفوا في مئة عام أربع مرات تقريباً، يبدو لي أن كل شخص، في المجمل، أكثر وعياً لفرديته مما كان في الماضي، وأقل وعياً لواجباته بالتأكيد، وأكثر انتباهاً لمكانته في المجتمع ولصحته وراحته وجسده ومستقبله والقدرات المتوافرة لديه وهويته مهما كان المحتوى الذي تمنحه له. يبدو لي أيضاً أن كل واحد منا، إذا كان يجيد استخدام الوسائل الخارقة المتاحة له اليوم، يستطيع أن يؤثر بصورة هامة على معاصريه وعلى الأجيال القادمة. شرط أن يكون لديه شيء يقوله لها. وشرط أن يكون مبدعاً أيضاً لأن الحقائق الجديدة لاتصلنا مرفقة بطرق الاستخدام.

وبالأخص، شرط ألا ينكفئ المرء على ذاته متمتماً: «أيها العالم القاسي، لم أعد أريدك».

سيكون مثل هذا التردد عقيماً كالقلق الآخر الذي تستثيره العولمة. والسبب المتهم هذه المرة هو التماثل من خلال الهيمنة وليس التماثل من خلال التسطيح. وهو قلق واسع الانتشار وهو سبب العديد من التوترات والصراعات الدامية.

ويمكن صياغة هذا القلق على الشكل التالي: هل يوجد اختلاف بين العولمة والأمركة؟ ألاتهدف بالدرجة الأولى لأن تفرض على العالم اللغة ذاتها والنظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ذاته، وطريقة العيش ذاتها وسلم القيم ذاته، وهي ذاتها المتبعة في الولايات المتحدة الأميركية. إذا صدقنا بعضهم فإن ظاهرة العولمة بمجملها لن تكون إلا تنكراً وتورية، حصان طروادة الذي يخفي خلفه مشروع سيطرة.

إن فكرة تطور تقنيات وأخلاق موجهة عن بُعد بوساطة قوة

عظمى أو تحالف من القوى هي فكرة عبثية بالنسبة لكل مراقب عاقل. بالمقابل، يمكن عن حق أن نتساءل ما إذا كانت العولمة تساعد على سيطرة حضارة أو هيمنة قوة. وهذا مايبدي خطرين عظيمين، أولهما هو رؤية اللغات والتقاليد والثقافات تختفي شيئاً فشيئاً، والثاني هو رؤية حاملي هذه الثقافات المهدَّدة يتبنون مواقف أكثر فأكثر راديكالية وانتحارية.

إن مخاطر الهيمنة حقيقية. بل إن الحديث عن مخاطر فقط هو عملية تورية. لاشك أن الحضارة الغربية قد اكتسبت منذ قرون وضعاً خاصاً نسبة إلى كل الحضارات الأخرى، كحضارات آسيا وأفريقيا وأميركا ما قبل كولومبوس وأوروبا الشرقية، التي وجدت نفسها مهمشة أكثر فأكثر ومتأثرة بعمق إن لم نقل أعيد تشكيلها من قبل الغرب المسيحي. ولاشك أيضاً أن الدول الغربية المتطورة قد نجحت، مع انهيار الاتحاد السوفييتي، في توطيد التفوق المطلق لنظامها الاقتصادي والسياسي الذي يتجه لأن يصبح المعيار للعالم كله.

كذلك لاحاجة للإكثار من البراهين لكي نتبين أن الولايات المتحدة، التي أصبحت بعد انتهاء الحرب الباردة القوة العظمى الحقيقية الوحيدة، تمارس اليوم على مجمل الكوكب تأثيراً لاسابق له. وهو تأثير يتجلى بطرق متنوعة وأحياناً بوساطة فعل متعمد من أجل حل نزاع اقليمي أو زعزعة عدو أو تغيير السياسة الاقتصادية لخصم، لكن في أغلب الأحيان بوساطة تحريض لاإرادي تفرضه قوة النموذج وجاذبيته: إن المليارات من الرجال والنساء المنتمين إلى أكثر الثقافات اختلافاً يغريهم أن يقلدوا الأميركيين، وأن يأكلوا ويلبسوا مثلهم ويتكلموا ويغنوا مثلهم، أو كما نتصور أنهم يفعلون.

إذا كنت أعدد كل هذه البديهيات فلأنه يبدو لي مفيداً أن أذكِّر بها صراحةً قبل صياغة الأسئلة التي تستتبعها: إلى أي درجة ستكون الثقافة الشمولية التي تتشكل يوماً بعد يوم غربية بالضرورة،

وبشكل خاص جداً أميركية؟ وهذا السؤال يقودنا إلى سؤال آخر: ماذا سيحل بالثقافات الأخرى؟ ماذا سيحل باللغات العديدة التي نتحدث بها اليوم؟ وبالتحديد باللهجات المحلية الآيلة إلى الزوال عاجلاً أم آجلاً؟ وفي أي جو ستجري العولمة في العقود القادمة إذا كانت تبدو بشكل متزايد مدمرة للثقافات واللغات والطقوس والمعتقدات والتقاليد، وكذلك مدمرة للهويات؟ لو كان كل واحد منا مهدداً بالتنكر لذاته لكي يواكب الحداثة كما تتحدد اليوم وستُحدد ألن يتعمم رد الفعل الرجعي والعنف أيضاً؟

IV

ترويض الفهد

1

لاتسعى هذه المقالة، في الصفحات التي سبقت أو في الصفحات القادمة إلى الإحاطة بمجمل الظواهر الاقتصادية والتكنولوجية والجيوسياسية التي يغطيها مفهوم العولمة. مثلما لم تسعى في الفصول الأولى إلى استنفاد مفهوم الهوية الواسع. وهنا أيضاً نطرح هدفاً أكثر تواضعاً ووضوحاً، وهو محاولة فهم الطريقة التي تثير بها العولمة السلوكيات المعبرة عن الهوية وبأية طريقة تستطيع أن تجعلها يوماً ما أقل قتلاً.

ينطلق تحليلي من الملاحظة التالية: عندما يرى المجتمع في الحداثة يداً غريبة يميل إلى رفضها وحماية نفسه منها. لقد تحدثتُ مطولاً عن العالم العربي الإسلامي وعلاقاته المعقدة مع كل ما يأتيه من الغرب. ويمكن مشاهدة ظاهرة مشابهة اليوم في مختلف أنحاء الكوكب فيما يتعلق بالعولمة. إذا أردنا تجنب أن تُطلق العولمة عند الملايين والملايين من أمثالنا رفضاً قاطعاً وساخطاً وانتحارياً كردة فعل، من الضروري ألا تبدو الثقافة الشمولية التي تبنيها أميركية حصراً. ينبغي أن يتعرف كل فرد على نفسه فيها قليلاً وأن يستطيع التماهي معها وألا يضطر أحد إلى اعتبارها غريبة بصورة قطعية وبالتالي معادية.

هنا أيضاً يبدو لي مفيداً أن أشير إلى المبدأ الأساسي وهو

مبدأ التبادل، إذ ينبغي اليوم على كل فرد منا أن يتبنى عدداً كبيراً من العناصر التي تأتيه من الثقافات الأقوى، ولكن من الضروري أن يستطيع كل شخص التحقق أن هناك من يتبنى بعض عناصر ثقافته الخاصة من شخصيات وأساليب وأعمال فنية وأشياء مفيدة وموسيقا ومأكولات وكلمات في كل القارات بما فيها أميركا الشمالية، وأنها باتت تشكل جزءاً من الإرث العالمي المشترك لكل الإنسانية.

إن الهوية مسألة رموز بالدرجة الأولى، وحتى مظاهر. عندما أرى وسط مجلس أشخاص يحملون أسماء تتناغم مع اسمي أو لون البشرة ذاته أو الميول ذاتها بل العيوب ذاتها أستطيع أن أشعر أن هذا المجلس يمثلني. فهناك خيط انتماء يربطني به يمكن أن يكون رقيقاً أو سميكاً ولكن سرعان ما يهتدي إليه ذوو الهوية السطحية.

مايصح على مجلس ينطبق أيضاً على فئة اجتماعية أو جماعة قومية وكذلك على الجماعة الشاملة. حيثما كان المرء يحتاج إلى علامات التعارف هذه، إلى هذه الجسور صوب الآخر، وهي الطريقة الأكثر تحضراً لإشباع الحاجة إلى الهوية.

تتنبه بعض المجتمعات لهذا الجانب من الأمور عندما يتعلق الأمر بتحقيق هذه التوازنات الداخلية، ولكنها تصبح أقل اهتماماً عندما يتعلق الأمر بالعلاقات بين الثقافات المتنوعة على المستوى العالمي. بالطبع أعني الولايات المتحدة. سواء كان المرء من أصل بولندي أو إيرلندي أو إيطالي أو أفريقي أو إسباني سيرى حتماً تتالي الأسماء أو الوجوه من بولندية أو ايرلندية أو إيطالية أو أفريقية أو إسبانية. ويكون الأمر أحياناً منظماً ومصطنعاً ومتفقاً عليه لدرجة أنه مقلق. فتسعة أعشار المسلسلات البوليسية تختار رجلاً أشقر ذا عينين زرقاوين ليلعب دور المُغتصِب حتى لاتعطي الانطباع بأنها تصور الأقليات بصورة سلبية؛ وعندما يكون المنحرف زنجياً والشرطي الذي يطارده رجلاً أبيض يدبرون

الأمر بحيث يكون رئيس الشرطة زنجياً هو أيضاً. هذا مقلق؟ ربما. ولكن عندما نتذكر أفلام رعاة البقر والهنود القديمة حيث كان هؤلاء يُحصَدون عن بَكرة أبيهم وسط التصفيق الحاد للصبية سنظن أن الموقف الحالي أقل سوءاً.

أما وقد قلت ذلك، فلا أريد أن أمنح هذه الممارسات التوازنية من الرصيد أكثر مما تستحق. لأنها وإن كانت تساعد أحياناً على تراجع الأحكام المسبقة العرقية أو الاثنية أو غيرها إلا أنها تساهم أحياناً في بقائها. ويمكن أن نشاهد على الشاشة، باسم المبدأ ذاته: «ألّا يشعر أي أميركي بأنه مهان بما يشاهد أو يسمع». إن أي ارتباط بين أبيض وزنجية أو بيضاء وزنجي ممنوع تقريباً لأن الرأي العام، كما يدّعون، لايرتاح لهذا النوع من التهجين. لذلك يرتبون الأمر بحيث «يعاشر» كل فرد أشخاصاً في «قبيلته». وهنا أيضاً نجد عملية منظمة ومتوقعة لدرجة أنها تثير الغيظ، بل هي مهينة.

تلك هي انحرافات الإجماع المعيق للبلوغ. ولكنها لاتلغي في نظري صحة الفكرة السائدة اليوم في الولايات المتحدة، والتي تعتبر أن كل مواطن وكل أقلي خاصة يجب أن يتمكن من التعرف على نفسه، وهو يشاهد التلفاز، في الأسماء والوجوه التي تظهر، ويجب أن يرى أنها تمثله بصورة إيجابية لكي لايشعر أنه خارج الجماعة القومية.

تستحق هذه الفكرة أن تُستعاد في إطار أوسع: بما أن كل الكوكب يستطيع الوصول إلى الصور والأصوات والمنتجات ذاتها، أليس من الطبيعي أن تمثّل هذه الصور والأصوات والمنتجات كل الثقافات، وأن يتمكن كل فرد من التعرف على نفسه فيها وألا يقدّر أحد أنها تستبعده؟ على المستوى الشمولي، وكذلك وسط كل مجتمع، يجب ألا يشعر أحد أنه مهدد أو محتقر أو مستبعد أو «ملعون» لدرجة أن يكون مضطراً لأن يواري بخجل ديانته أو لونه أو لغته أو

اسمه أو أي عنصر مكوِّن لهويته، لكي يتمكن من العيش وسط الآخرين. كل فرد يجب أن يكون قادراً على الاضطلاع بكل انتماء من انتماءاته ورأسه مرفوع ودون خوف وضغينة.

سيكون مدمِّراً أن تعمل العولمة الجارية في اتجاه واحد، فمن جهة هناك «المرسلون العالميون» ومن جهة أخرى «المتلقون»؛ من جهة «القاعدة» ومن الجهة الأخرى «الشواذ»؛ من جهة «المقتنعون» بأن بقيةَ العالم لايستطيع أن يعلِّمهم شيئاً، ومن الجهة الأخرى المقتنعون بأن العالم لايرغب بالاستماع إليهم أبداً.

وأنا أكتب هذه السطور لاأفكر بنزعة الهيمنة فقط، وإنما بنزعة أخرى تتجلى في مختلف أنحاء الكوكب وهي بشكل ما عكس الأولى، أو صورتها السلبية، وتبدو لي ضارة بذات القدر، وهي نزعة النكاية.

كم من الناس أخذهم الدوار ورفضوا فَهْمَ ما يحدث، كم من الناس عدلوا عن تقديم مساهمتهم في الثقافة العالمية المنبثقة لأنهم حكموا مرة وإلى الأبد أن العالم الذي يحيط بهم مغلقٌ ومُعادٍ ومتوحش وجنوني وشيطاني، وكم من الناس يميلون للانعزال في دور الضحايا، ضحايا أميركا، وضحايا الغرب، وضحايا الرأسمالية أو الليبرالية، وضحايا التكنولوجيات الجديدة، وضحايا وسائل الإعلام وضحايا التغيير... لاأحد يستطيع أن ينكر أن هؤلاء الأشخاص يشعرون فعلياً أنهم مستلبون، وهم يتألمون لذلك. إن ردة فعلهم هي التي تبدو لي مكدِّرة. إن الانغلاق في ذهنية المعتدى عليه أكثر خطراً على الضحية من العدوان ذاته، زد على أن هذا الأمر يصحّ أيضاً على المجتمعات مثلما يصحّ على الأفراد. إذ نتقوقع ونتحصن ونحمي أنفسنا من كل شيء، وننغلق ونجتر ونتوقف عن البحث والاكتشاف والتقدم، فنخشى من المستقبل ومن الحاضر ومن الآخرين.

وأرغب باستمرار أن أقول للذين يرتكسون على هذا النحو إن

عالَم اليوم لايشبه الصورة التي يشكلونها عنه! ليس صحيحاً إن هناك قوى غامضة وكلية القدرة توجهه! ليس صحيحاً أنه مُلك الآخرين! لاشك أن اتساع العولمة وكذلك سرعة التغيرات التي تثير الدوار تمنح كل فردٍ منّا شعوراً بأنه غارق في كل ما يحدث وعاجز عن تغيير مجرى الأحداث. ولكن من الضروري أن نذكّر باستمرار أن هذا الشعور يتقاسمه عدد كبير من الناس بمن فيهم الذين تعوّدنا روًيتهم في أعلى السُّلم.

كنتُ أقول في فصل سابق بأن كل الناس في عصرنا تشعر أنها أقليّة نوعاً ما، ومستبعَدة نوعاً ما. ذلك أن كل الجماعات والثقافات لديها انطباع بأنها تتبارى مع الأقوى منها، وبأنها لم تعد قادرةً على الحفاظ على إرثها سليماً. فالغرب هو المسيطر من وجهة نظر الجنوب والشرق؛ وأميركا هي المسيطرة من وجهة نظر باريس، ومع ذلك عندما ننتقل إلى الولايات المتحدة فماذا نرى؟ نرى أقليات تعكس كل تنوع العالم وجميعها تشعر بالحاجة إلى تأكيد انتمائها الأصلي، وبعد أن نكون قد جُلنا حول هذه الأقليات وسمعنا ألفَ مرة أن السلطة هي في يد الرجال البيض ويد البروتستانت الأنكلوساكسونيين، نسمع فجأة انفجاراً هائلاً في أوكلاهوماسيتي. من هم الفاعلون؟ إنهم بالتحديد الرجال البيض الأنكلوساكسونيون والبروتستانت المقتنعون أنهم أكثر الأقليات إهمالاً واحتقاراً، المقتنعون أن العولمة تقرع أجراس الحزن على أميركا خاصتهم. إن تيموثي ماك ڤاي وأتباعه يمثّلون تماماً، في نظر بقية العالم، الجانب الاثني للذين يُفترض أنهم سيحكمون الكوكب ويتحكمون بمستقبلنا. يعتبرون أنفسهم مجرد فئة في طريقها إلى الزوال ولاتمتلك أي سلاح آخر غير أكثر أشكال الإرهاب فتكاً.

لمن هذا العالَمُ إذاً؟ ليس العالَمُ لأي عِرْقٍ بعينه أو قومية بعينها، إنه أكثر من أي وقت مضى في التاريخ لكل الذين يريدون أن يتخذوا فيه مكاناً لأنفسهم. إنه لكل الذين يسعون إلى التقاط قواعد اللعبة الجديدة مهما كانت محيِّرة من أجل استخدامها لصالحهم.

أرجو أن يتم فهمي بشكل جيد فأنا لاأسعى إلى تغطية بشاعات العالم الذي نعيش فيه بحجاب من العفة. فأنا أفضح عيوبه وتعدياته ومظالمه وانحرافاته القاتلة منذ بداية هذا الكتاب، ولكنني أثور هذا مع بعض العاطفة، ضد محاولة اليأس، وضد هذا الموقف الشديد الانتشار بين حاملي الثقافات «المحيطية»، والذي يقوم على الاستكانة للمرارة والاستسلام والسلبية، فلا يخرجون منه إلّا بالعنف الانتحاري.

لاأشك أن العولمة تهدد التنوعَ الثقافي وبشكل خاص تنوع اللغات وطرق العيش، حتى أني مقتنع أن هذا التهديد أخطر بكثير مما كان في الماضي، وهذا ما سأعود للتحدث عنه في الصفحات التالية، إلّا أن عالم اليوم يمنح الذين يريدون الحفاظ على ثقافاتهم المهدَّدة الوسائل من أجل الدفاع عن أنفسهم. وبدلاً من الاضمحلال والزوال «كما كانت الحالة منذ قرون»، باتت هذه الثقافات تمتلك إمكانية المواجهة من أجل البقاء على قيد الحياة، أليس عبثياً أن لانستفيد منها؟

إن الانقلابات التكنولوجية والاجتماعية التي تحدث حولنا تشكل ظاهرة تاريخية ذات تعقيد واتساع كبيرين، يستطيع كل فرد أن يستفيد منها ولا أحد قادر على السيطرة عليها، ولا حتى أميركا. ليست العولمة أداة «نظام جديد» يسعى «بعضهم» لفرضه على العالم، بل أراها أشبه بحلبة مفتوحة من كل الجوانب تجري فيها ألف مبارزة وألف معركة في الوقت ذاته. ويمكن لكل فرد أن يدخلَ إليها مزوَّداً بشعاراته وأسلحته في لغطٍ لايمكن ضبطه.

ولنأخذ مثال الانترنت الذي يبدو، إذا نظرنا إليه من الخارج بحذر مُسبق، وحشاً كوكبياً هلامياً يبسط أقوياءُ هذا العالم بوساطته أذرعهم على الأرض بكاملها. وإذا نظرنا إلى الانترنت من الداخل لرأينا أنها أداة حرية رائعة وفضاء عادل بحق يمكن لكل فرد أن يستخدمها على هواه، ويمكن لأربع طلاب أذكياء أن يمارسوا في

إطارها تأثيراً لايقل عن تأثير رئيس دولة أو شركة نفطية. وإذا كانت سيطرة اللغة الانكليزية فيها ساحقة فإن تنوع اللغات يزدهر فيها يوماً بعد يوم، ويساعد في ذلك بعض الاختراعات في مجال الترجمة الفورية وهي اختراعات مازالت بدائية وركيكة ومضحكة أحياناً. إلّا أنها تَعِد بالكثير في المستقبل.

وعلى العموم تُقدِّم وسائل الاتصال الجديدة لعدد كبير من معاصرينا ولأناس يعيشون في كل الدول، وحاملين لكل التقاليد الثقافية، إمكانية المساهمة في توليد ما سيصبح غداً ثقافتنا المشتركة.

إذا كنّا نريد منع لغتنا من الموت، وإذا كنا نريد أن نعرّف العالم بالثقافة التي كبرنا في كنفها ونجعلهم يحبونها ويحترمونها؛ إذا كنا نتمنى أن تنعم الجماعة التي ننتمي إليها بالحرية والديمقراطية والكرامة والرفاهية، فالمعركة ليست خاسرة سلفاً. تُظهر أمثلة تأتي من كل القارات أن الذين يقاتلون بمهارة ضد التسلط والظلامية والتمييز والاحتقار والإغفال، يمكنهم أن يكسبوا القضية في أغلب الأحيان، وكذلك الذين يقاتلون ضد الجوع والجهل والمرض. إننا نعيش في عصر مدهش حيث يمكن لكل شخص لديه فكرة سواء كانت عبقرية أو شاذة أو غير مجدية أن يوصلها في اليوم ذاته إلى عشرات الملايين من أمثاله.

إذا كنّا نؤمن بشيء ما وإذا كنا نحمل في داخلنا ما يكفي من الطاقة وما يكفي من العاطفة وما يكفي من رغبة العيش، يمكن أن نجد في المصادر التي يقدمها لنا عالم اليوم الوسائل من أجل تحقيق بعض من أحلامنا.

2

هل أسعى إلى القول من خلال هذه الأمثلة أنّه كلّما وضعتنا حضارة اليوم في مواجهة مشكلة ما تقدّم لنا، بما يشبه المعجزة، الوسائل من أجل حلها. لا أعتقد أنه يوجد هنا ما يسمح باستخلاص قانون ما. لكن من المؤكد أن القوة العظيمة التي منحها العلم والتكنولوجيا الحديثين للإنسان يمكن أن تفيد في استخدامات متعارضة، بعضها مدمِّر وبعضها بنّاء. هكذا، ورغم أن الطبيعة لم تُعامَل يوماً بمثل هذا السوء، إلّا أننا بتنا قادرين على حمايتها أكثر من أي وقت مضى لأن وسائل تدخلنا تطورت ولأن وعينا أصبح أكبر من ذي قبل.

هذا لايعني أن تأثيرنا المصلِح هو في مستوى قدرتنا على الإضرار، مثلما تُظهر للأسف أمثلة عديدة منها مثال طبقة الأوزون أو مثال أجناس عديدة مازالت مهددة بالانقراض.

كان يمكن أن أذكر مجالات أخرى غير البيئة ولكني اخترت هذا المجال لأن بعض المخاطر التي نصادفها فيه تشبه تلك التي تضعنا العولمةُ في مواجهتها. إذ أن التنوعَ مهدَّد في الحالتين؛ فعلى غرار هذه الأجناس التي عاشت ملايين السنين لكي تأتي وتنطفئ أمام أعيننا، يمكن أيضاً للعديد من الثقافات التي نجحت في الثبات خلال مئات وآلاف السنين أن تنطفئ تحت أعيننا إذا لم ننتبه للموضوع. بعضها يختفي الآن، فهناك لغات يتوقف التحدث بها، مع موت

آخر الناطقين بها، وجماعات إنسانية شكلت عبر التاريخ ثقافة أصيلة مكوَّنة من آلاف الاكتشافات في الملبس والطب والرسم والموسيقا والإشارات والجرف والمأكل والقصص، مهددة بأن تفقد أرضها ولغتها وذاكرتها ومعرفتها وهويتها الخاصة وكرامتها.

لاأتحدث فقط عن المجتمعات التي بقيت دائماً بعيدة جداً عن حركات التاريخ الكبرى، أتحدث عن عدد كبير من الجماعات الإنسانية في الغرب والشرق، في الجنوب والشمال، من واقع أن لها كلّها خصوصياتها. لايتعلق الأمر في ذهني بتثبيت واحدة أو أخرى من هذه الجماعات في لحظة من لحظات تطورها ولابتحويلها إلى عرض ممتع، يتعلق الأمر بالحفاظ على إرثنا المشترك من المعارف والنشاطات بكل تنوعه، وحيثما كان، من البروڤانس إلى بورنيو، من لويزيانا إلى الآمازون؛ يتعلق الأمر إذاً بإعطاء كل الأشخاص إمكانية العيش كلياً في عالم اليوم والاستفادة كلياً من كل التطورات التقنية والاجتماعية والفكرية دون أن يفقدوا مع ذلك ذاكرتهم الخاصة ولا كرامتهم.

لماذا نتنبه لتنوع الثقافات الإنسانية أقل مما هو لتنوع الأجناس الحيوانية أو النباتية؟ ألا يجب على إرادتنا المشروعة في الحفاظ على محيطنا أن تمتد إلى محيطنا الإنساني؟ من وجهة نظر الطبيعة مثلما من وجهة نظر الثقافة، سيكون كوكبنا حزيناً لو لم يكن هناك سوى أجناس «مفيدة»، وبعض الأجناس الأخرى التي تبدو لنا «تزيينية» أو التي اكتسبت قيمة رمزية.

بتعداد كل هذه الجوانب من الثقافة الإنسانية يبدو واضحاً أن هذه الثقافة تكشف عن منطقين مختلفين، منطق الاقتصاد الذي يتجه بشكل متزايد صوب منافسة بلا قيود، ومنطق البيئة المستوحى من مبدأ الحماية. بديهي أن الأول يتناسب مع روح العصر، أما الثاني، فهناك حاجة دائمة لوجوده. حتى الدول شديدة التأييد لحرية التبادلات المطلقة تسن قوانين الحماية لكي تتجنب مثلاً أن يتعرض موقع طبيعي للتخريب على يد المتعهدين. وفيما يتعلق بالثقافة يجب

اللجوء أحياناً إلى الأساليب ذاتها من أجل وضع الرادع وتحاشي ما لايمكن إصلاحه.

ولكن قد لايكون هذا الحل إلا حلاً مؤقتاً. حالياً ينبغي علينا، نحن المواطنين، أن نستلم زمام المبادرة. سنكسب معركة التنوع الثقافي عندما نصبح مستعدين لتعبئة أنفسنا فكرياً وعاطفياً ومادياً لصالح لغة مهددة بالزوال بمثل ما يتطلبه منع انقراض الباندا أو وحيد القرن من اقتناع.

كنت أذكر اللغة باستمرار في عداد العناصر التي تحدد ثقافةً وهويةً ما دون أن أشدد مع ذلك على أن الأمر لايتعلق فقط بمجرد عنصر من العناصر، وربما حان الوقت في هذا الجزء الأخير من الكتاب لفصلها عن بقية العناصر ومنحها المكان الذي تستحقه.

من بين كل العناصر التي نعترف بها، تبقى اللغة من أهم العناصر تحديداً للانتماء. وهي لاتقل أهمية عن الدين الذي كان على مدى التاريخ منافسها الأساسي بطريقة ما، وأحياناً حليفها. عندما تنطق جماعتان بلغتين مختلفتين لاتكفي ديانتهما المشتركة من أجل توحيد الصف، كالكاثوليك الفلمنديين والوالونيين، المسلمين الأتراك والأكراد والعرب الخ. مثلما لاتضمن اللغة المشتركة في البوسنة التعايش بين الأرثوذكسيين الصرب والكاثوليك الكرواتيين والمسلمين. في كل أنحاء العالم تفككت دول عديدة تجمعها لغة مشتركة بسبب الصراعات الدينية، كما تمزقت دول عديدة تجمعها ديانة مشتركة بسبب الصراعات اللغوية.

هذا فيما يتعلق بالمنافسة. وفي الوقت ذاته، لاشك أن «تحالفات» عريقة تشكلت بين الإسلام واللغة العربية مثلاً، وبين الكنيسة الكاثوليكية واللغة اللاتينية، وبين الكتاب المقدس للوثر واللغة الألمانية. وإذا كان الإسرائيليون يشكلون اليوم قومية فليس بسبب الرابط الديني الذي يوحدهم، مهما كان قوياً، وإنما بسبب

اللغة العبرية الحديثة التي شكلت لغة قومية حقيقية. إن من يحيا أربعين عاماً في إسرائيل دون أن يدخل أبداً إلى الكنيس لايصبح خارج الجماعة القومية تماماً، ولكننا لانستطيع قول الشيء ذاته عن شخص يعيش أربعين عاماً دون أن يتعلم اللغة العبرية. وهذا صحيح في عدد من الدول الأخرى، في كل أنحاء العالم، ولانحتاج لبراهين طويلة لكي نتبين أن الرجل يستطيع أن يحيا دون أية ديانة، ولكن بالطبع ليس دون أية لغة.

هناك ملاحظة أخرى لاتقل بداهة ولكن تستحق التذكير بها عندما نقارن هذين العنصرين الأساسين للهوية، وهي أن قدر الديانة أن تكون حصرية أما اللغة فلا. يمكن أن نتحدث العبرية والعربية والإيطالية والسويدية في الوقت ذاته، ولكننا لانستطيع أن نكون عبريين ومسلمين وكاثوليك ولوثريين. أضف إلى ذلك أننا عندما نعتبر أنفسنا من أتباع ديانتين في الوقت ذاته لايكون مثل هذا الموقف مقبولاً من الآخرين.

لاأسعى انطلاقاً من هذه المقارنة المختصرة بين الدين واللغة إلى وضع أولوية أو تفضيل. أريد فقط جذب الانتباه إلى أن اللغة تمتلك تلك الخصوصية المدهشة في أنها عنصر هوية وأداة اتصال في الوقت ذاته. لذلك، وعكس التمني الذي كنت أصوغه فيما يتعلق بالدين، يبدو لي أن فصل اللغة عن الهوية غير ممكن وغير مفيد. فقدر اللغة أن تبقى محور الهوية الثقافية وأن يبقى التنوع اللغوي محور كل تنوع.

لاأرغب أن أدرس بالتفصيل ظاهرة بمثل تعقيد العلاقات بين الناس ولغاتهم، ولكن يبدو لي هاماً أن أذكّر في إطار هذا المقال المحدود جداً ببعض الجوانب التي تتعلق بمفهوم الهوية بشكل خاص.

لنتبين أولاً أن كل إنسان يحتاج إلى لغة تحدد هويته، وهي

مشتركة أحياناً بين بضعة ملايين من الأفراد وأحياناً بين بضعة آلاف فقط، لايهم، مايهم فقط عند هذا الحد هو شعور الانتماء. كل فرد منا بحاجة لهذا الرباط القوي والمطمئِن الذي يحدد الهوية.

لايوجد ماهو أخطر من السعي إلى قطع الحبل السري الذي يربط الإنسان بلغته. عندما ينقطع أو يضطرب بشدة ينعكس ذلك بشكل مدمِّر على مجمل الشخصية. إن التعصب الذي يدمي الجزائر يفسره إحباط مرتبط باللغة أكثر مما هو بالدين. لم تحاول فرنسا أبداً تحويل مسلمي الجزائر إلى المسيحية ولكنها أرادت استبدال لغتهم باللغة الفرنسية بطريقة تصديرية دون أن تمنحهم في المقابل مواطنية حقيقية. وأقوله معرِّجاً بأني لم أفهم أبداً كيف استطاعت دولة تدّعي العلمانية أن تطلق على بعض رعاياها تسمية «الفرنسيون المسلمون» وتحرمهم من بعض حقوقهم لمجرد أنهم من ديانة غير ديانتها.

ولكني أنهي استطرادي سريعاً، فهو ليس إلا مثالاً مأسوياً بين العديد من الأمثلة الأخرى، وسأحتاج إلى مكان إضافي إذا حاولت أن أصف بالتفصيل مايجب أن يعانيه الناس، اليوم أيضاً، وفي كل دولة، لمجرد أنهم يتحدثون بلغة تستثير من حولهم الحذر أو العداء أو الاحتقار أو السخرية.

من الضروري أن يتوطد بوضوح ودون أدنى لبس، وأن يُراقَب دون كلل، حق كل إنسان في الاحتفاظ باللغة التي تحدد هويته واستخدامها بحرية. وتبدو لي هذه الحرية أكثر أهمية أيضاً من حرية المعتقد. فهذه الأخيرة تحمي أحياناً عقائد معادية للحرية ومضادة لحقوق النساء والرجال الأساسية. وأتحفظ من جهتي فيما يخص الدفاع عن حق التعبير عند الذين ينادون بإلغاء الحريات وبمختلف عقائد الكراهية والاستعباد. وبالعكس، إن المناداة بحق كل إنسان في التحدث بلغته لايجب أن يستثير أي تردد من هذا النوع.

وهذا لايعني أنه من السهل دائماً وضع هذا الحق موضع

التنفيذ. بعد أن يتم إعلان المبدأ يتبقى علينا القيام بالشيء الأساسي. هل يستطيع كل شخص أن يطالب بحق الذهاب إلى دائرة، والتحدث بلغته الخاصة وهو مطمئن إلى أن الموظف الجالس وراء شبّاكه سيفهمه؟ هل تستطيع اللغة التي قُمعت لفترة طويلة أو على الأقل أهملت أن تعيد تأكيد مكانتها بشكل مشروع على حساب اللغات الأخرى، مع خطر إحلال نمط آخر من التمييز؟ بالطبع لايتعلق الأمر هنا بدراسة مختلف الأمثلة التي تُعدّ بالمئات من باكستان إلى كيبك، ومن نيجيريا إلى كاتالونيا، بل بدخول عصر جديد من الحرية والتنوع الهادئ، متخلصين من المظالم السابقة دون استبدالها بمظالم أخرى بوساطة استبعادات أخرى وتعصب آخر، مع الاعتراف بحق كل شخص في أن تتعايش انتماءات لغوية عدة في إطار هويته.

بالطبع لم تولد كل اللغات متساوية. ولكني أقول عنها ما أقوله عن الأشخاص، أي أن لها جميعها الحق في احترام كرامتها. من وجهة نظر الحاجة إلى هوية تؤدي اللغة الانكليزية واللغة الإيسلندية الدور ذاته؛ ولكنها تكف عن كونها متساوية عندما نقارب الوظيفة الأخرى للغة أي دورها كأداة تواصل.

3

أود التوقف قليلاً عند مسألة عدم التساوي بين اللغات في بضع صفحات، لسبب يهمني بشكل خاص، سبق وسنحت لي فرصة ذكره. عندما ألحظ عند بعض الأشخاص في فرنسا مخاوف تتعلق بمسيرة العالم، ومخاوف أمام هذا الاكتشاف التكنولوجي أو ذاك، وهذا النمط الفكري أو الكلامي أو الموسيقي أو الغذائي، وعندما ألحظ علامات تردد وحنين زائد، أو حتى ماضوية، غالباً مايكون هذا مرتبطاً، بصورة أخرى، بما يستشعره الناس أمام الانتشار المستمر للغة الانكليزية ووضعها الحالي كلغة عالمية مسيطرة.

يبدو هذا الموقف خاصاً بفرنسا من بعض جوانبه. وذلك لأنها كانت تمتلك، فيما يخص اللغة، طموحات شمولية، لقد كانت الأولى التي عانت من الصعود الهائل للانكليزية. بالنسبة للدول التي ليس لديها، أو لم يعد لديها، مثل هذه التطلعات، فإن مسألة العلاقات مع اللغة المسيطرة غير مطروحة بالتعابير ذاتها، ولكنها مطروحة.

وما أطرحه عن الدول الكبرى يصح أيضاً على الدول الصغرى. إذا عدت إلى مثال اللغة الإيسلندية التي لايبلغ عدد المتحدثين بها الثلاثمئة ألف نسمة بدت معطيات المسألة بسيطة. فكل سكان الجزيرة يتحدثون بلغتهم فيما بينهم، ولكن عندما يتصلون بأجنبي فمن الأفضل لهم معرفة اللغة الانكليزية. يبدو أن لكل لغة فضائلها المحدودة جداً؛ لامنافسة في الخارج لأن الإيسلندية لم تكن يوماً لغة

تبادلات دولية، ولا منافسة في الداخل لأن أي أم إيسلندية لن يخطر ببالها أن تتحدث إلى ابنها باللغة الانكليزية.

ومع ذلك تتعقد الأمور عندما نقارب مجال الوصول إلى المعلومات الواسع. تبذل إيسلندا مجهوداً مستمراً ومكلفاً لكي يواصل شبانها القراءة بالإيسلندية بدلاً من الانكليزية، وهو ما يحدث في بقية العالم. أما إذا تراخى انتباهنا واكتفينا بالاستسلام لقانون العدد وقانون السوق، فسيقتصر استخدام اللغة القومية قريباً على الاستخدامات المنزلية، وينحسر مجالها، وتصبحُ في النهاية لهجةً محلية عامية. لكي تبقى اللغة الإيسلندية لغة مستقلة وعنصر هوية أساسي، يجب ألا يُسلك طريق المواجهة الخاسرة سلفاً ضد اللغة الانكليزية، بل تعبئة كل فرد من أجل الحفاظ على اللغة القومية وتطويرها، وكذلك من أجل الحفاظ على العلاقات مع اللغات الأخرى وتمتينها.

عندما نقوم بجولة على المواقع الإيسلندية على الانترنت، وهي من أكثرها عدداً في العالم نسبة إلى عدد السكان، نتبين ثلاثة أشياء، فكلها عملياً باللغة الإيسلندية، ومعظمها يتضمن خياراً يسمح بالمرور بكبسة زر إلى النسخة الانكليزية، والعديد منها يقترح أيضاً لغة ثالثة هي الدانماركية أو الألمانية غالباً. أتمنى من جهتي أن تُقترح لغات أخرى أيضاً وبصورة أكثر تنظيماً، ولكن الطريق المتّبع يبدو لي مناسباً.

وتفسيراً للأمر أقول: إن المعرفة الجيدة للغة الانكليزية ضرورية اليوم إذا كنّا نرغب بالاتصال مع مجمل الكوكب، وهي بداهة لاجدوى من الاعتراض عليها، ولكن الإدعاء بأن اللغة الانكليزية كافية إدعاء لاجدوى منه أيضاً، فهي وإن كانت تلبي تماماً بعض حاجاتنا الحالية فهناك حاجات أخرى لاتلبيها وعلى رأسها الحاجة إلى الهوية.

من المؤكَّد أن اللغة الانكليزية هي اللغة المرتبطة بالهوية بالنسبة للأميركيين والانكليز وبعض الآخرين، أما بالنسبة لبقية

البشرية أي أكثر من تسعة أعشار معاصرينا فهي لاتستطيع أن تلع
هذا الدور، وسيكون خَطِراً أن نجعلها تلعبه، إلاّ إذا أردنا خلق أفوا
من الكائنات المضطربة والمنحرفة وذات الشخصية المشوَّهة. لكي
يتمكن شخص من الشعور بالراحة في عالم اليوم، من الضروري الا
يكون مضطراً إلى ترك لغة هويته من أجل النفاذ إليه. يجب ألاّ يكو
المرء مضطراً إلى «الاغتراب» ذهنياً كلما فتح كتاباً، وكلما جلس
أمام شاشة، وكلما ناقش أو فكّر. يجب أن يتمكن كل فرد من امتلاك
الحداثة بدلاً من أن يكون لديه انطباع دائم بأنه يستعيرها من
الآخرين.

إضافة إلى ذلك، هناك مظهر يبدو لي أن الإشارة إليه أكثر أهمية، وهو أن لغة الهوية واللغة الشاملة ماعادا يكفيان. إذ يجب على كل الأشخاص الذين يمتلكون الوسائل والسن والقدرات أن يذهبوا أبعد من ذلك.

أن يتمكن فرنسي وكوري عندما يلتقيان من التواصل والتحاور وعقد الصفقات باللغة الانكليزية هو بلا شك تقدم بالنسبة إلى الماضي، ولكن ألاّ يتمكن فرنسي وإيطالي من التحادث إلاّ بالانكليزية فتراجع حتماً وإفقار لعلاقتهما.

أن يتمكن العديد من القرّاء في مكتبة في مدريد من تذوُّق فوكنر أو شتاينبك بلغتهما الأصلية لهو أمر رائع، ولكن سيكون مؤسفاً ألاّيتمكن أحدٌ يوماً ما من قراءة فلوبير أو موزيل أو بوشكين أو ستريندبرغ بنصهم الأصلي.

من هذه الملاحظات أسعى إلى استخلاص نتيجة تبدو لي أساسية، وهي أن الاكتفاء بالحد الأدنى الضروري في مجال اللغات سيكون مضاداً لروح عصرنا حتى لو بدا أن المظاهر توحي بشيء آخر. يوجد فضاء واسع بين اللغة المرتبطة بالهوية واللغة الشمولية، فضاء شاسع يجب أن نعرف كيف نملؤه.

توضيحاً لطرحي أودّ هذه المرة أن أضرب مثالاً من أكثر

الأمثلة تعقيداً واستتباعاً للنتائج، وهو مثال الاتحاد الأوروبي، إنها مجموعة من الدول التي كان لكل منها مسارها التاريخي الخاص، وإشعاعها الثقافي الخاص، وقد أخذت على عاتقها أن توجّه مصائرها للالتقاء. هل تصبح بعد خمسين سنة متحدة في إطار فيدرالي أو كونفيدرالي، أو ملتحمة بشكل نهائي، أو على العكس متفرقة؟ هل سيمتد الاتحاد صوب أوروبا الشرقية أو صوب المتوسط وحتى أية حدود؟ هل سيشتمل على دول البلقان؟ المغرب؟ تركيا؟ الشرق الأوسط؟ القوقاز؟ كثيرة هي الأشياء التي ترتبط بالإجابة على هذه التساؤلات في عالم الغد، خاصة العلاقات بين مختلف الحضارات ومختلف الديانات المسيحية والإسلام واليهودية. ولكن مهما كان مستقبل البناء الأوروبي ومهما كان شكل الاتحاد ومهما كانت الدول المتشاركة، يُطرح اليوم سؤال وسيُطرح أيضاً على مدى العديد من الأجيال القادمة، وهو كيف ندير تنوع اللغات التي تعدّ بالعشرات؟

في العديد من المجالات الأخرى نوحّد ونرتّب ونطبّع بكل ما أوتينا من قوة، في مجالنا هذا نبقى متحفظين. قد نجد غداً، إضافة إلى العملة الموحّدة والتشريع الموحَّد، الجيش ذاته والشرطة ذاتها والحكومة ذاتها، ولكن محاولة طمس أكثر اللغات محدودية يطلق أكثر ردات الفعل عاطفية وانفلاتاً. ولكي نتجنب المآسي نفضل أن نترجم ونترجم ونترجم مهما كان الثمن.

في هذه الأثناء، هناك توحيد جارٍ على قدم وساق، لم يقرره أحد، وهو يقلق الكثيرين، ولكن الحقائق اليومية تفرضه على الجميع. ما أن يلتقي إيطالي وألماني وسويدي وبلجيكي حول كأس، سواء كانوا طلاباً أو صحافيين أو رجال أعمال أو نقابيين أو موظفين حتى يلجؤوا حكماً إلى لغة مشتركة. لو قام البناء الأوروبي قبل مئة عام أو حتى قبل خمسين عاماً لكانت تلك اللغة هي الفرنسية، أما اليوم فهي الانكليزية.

هل نستطيع أن نوفِّق إلى مالانهاية بين هذين المطلبين

الضروريين وأعني رغبة الحفاظ على الهوية الخاصة بكل فرد. وضرورة التحادث والتبادل المستمر بين الأوروبيين بأقل مايمكن من العقبات؟ ولأجل الخروج من هذا المأزق وتجنب أن يجد الناس أنفسهم في بضع سنوات متورطين في صراعات لغوية مريرة لاخروج منها، لايكفي أن نستسلم للزمن، فنحن نعرف جيداً ما سيفعله الزمن.

إن السبيل الوحيد الممكن هو القيام بفعل إرادي يوطد التنوع اللغوي ويضعه في الطباع، انطلاقاً من فكرة بسيطة، وهي أن كل شخص يحتاج اليوم، بشكل بديهي، إلى ثلاث لغات. اللغة الأولى هي لغة هويته والثانية هي الانكليزية. وبين اللغتين من الضروري تشجيع لغة يختارها الفرد بحرية وتكون غالباً، وليس دائماً، لغة أوروبية أخرى تكون اللغة الأجنبية الرئيسية منذ المدرسة، وتكون أيضاً أكثر من ذلك، اللغة العزيزة على قلبه، اللغة المفضلة والمختارة والمحبوبة...

هل ستصبح العلاقات بين ألمانيا وفرنسا غداً بأيدي الناطقين بالانكليزية من البلدين، أم بأيدي الألمان الناطقين بالفرنسية والفرنسيين الناطقين بالألمانية. لن تكون الإجابة موضع شك. وبين إسبانيا وإيطاليا؟ وبين كل الشركاء الأوروبيين؟ يكفي قليل من الحس السليم، وقليل من الوضوح والإرادة لكي تصبح التبادلات التجارية والثقافية وغيرها في أيدي الذين يحملون للشريك فائدة خاصة أظهروها من خلال التزام ثقافي له دلالته، وهو الاقتران بلغة هويته؛ هؤلاء وحدهم يستطيعون الذهاب بعيداً جداً بهذه العلاقة.

هكذا سنجد، في السنوات القادمة، إلى جانب «العامّين» الذين يعرفون لغتهم الخاصة واللغة الانكليزية **فقط**، «أخصائيين» يمتلكون إضافة إلى هذا الحد الأدنى من المتاع لغة اتصال خاصة بهم، اختاروها بحرية وفق ميولهم الشخصية وينجزون بوساطتها تفتحهم الشخصي والمهني. سيكون عجزاً شديداً ألا يعرف المرء اللغة الانكليزية، ولكن سيكون أيضاً وبشكل متزايد

عجزاً شديداً ألا يعرف المرء إلا الانكليزية، بمن فيهم الذين تُعتبر الانكليزية لغتهم الأم.

يجب أن نحافظ على لغة هويتنا، وعدم تركها في المؤخرة كيلا يصبح الذين ينطقون بها مضطرين إلى التحول عنها إذا كانوا يريدون الوصول إلى ماتقترحه عليهم حضارة اليوم؛ وأن نعمم تعليم اللغة الانكليزية كلغة ثالثة دون تردد، وأن نشرح للشبان دون كلل كم هي مفيدة وغير كافية؛ وأن نشجع التنوع اللغوي في الوقت ذاته، وأن نعمل على إيجاد العديد من الأشخاص الذين يجيدون الإسبانية والفرنسية والبرتغالية والألمانية في وسط كل أمة، وكذلك العربية واليابانية والصينية ومئة لغة أخرى يندر التخصص بها، فتكون بالتالي عزيزة على الشخص والجماعة. هكذا يبدو لي طريق الحكمة لمن يأمل أن يحصل، من التطور الباهر للاتصالات، على الغنى في كل المجالات، بدلاً من الإفقار والحذر المعمم واضطراب العقول.

لن أنكر أن التوجه الذي أقترحه من أجل الحفاظ على التنوع الثقافي يتطلب جرعة من الإرادوية. ولكن إذا تخلينا عن بذل هذا الجهد وتركنا الأشياء تتبع منحاها، واستمرت الحضارة العالمية التي تتشكل أمام أعيننا بالظهور، في السنوات القادمة، أميركية أو انكلوفونية، أو غربية بشكل أساسي، فيبدو لي أن العالم كله سيكون خاسراً. أولاً الولايات المتحدة لأنها تستحوذ على قسم كبير من الكوكب يتحمل موازين القوى الحالية بشكل سيء؛ وثانياً المنتمون إلى الثقافات غير الغربية لأنهم سيخسرون بالتدريج كل ما يشكل سبب وجودهم وسيجدون أنفسهم مقادين إلى تمرد لامخرج منه؛ وأخيراً أوروبا، أكثر من أي أحد آخر ربما، ستخسر على الجهتين لأنها ستكون الهدف الأول للذين يعتبرون أنفسهم مستبعدين مع كونها عاجزة عن الحفاظ على تنوعها اللغوي والثقافي الخاص.

4

أوشكت أن أعطي هذا المقال عنواناً مزدوجاً: الهويات القاتلة أو كيف نروّض الفهد. لماذا الفهد؟ لأنه يقتل إذا طاردناه ويقتل إذا تركناه طليقاً، والأسوأ أن نتركه في الطبيعة بعد أن نكون قد جرحناه. ولكنني اخترت الفهد لأننا نستطيع أن نروضه أيضاً.

هذا ماكنت أطمح إلى قوله تقريباً في هذا الكتاب بخصوص رغبة الهوية. يجب ألا تُعالج بالاضطهاد والتواطؤ، بل يجب تفحصها ودراستها بهدوء وفهمها، ثم السيطرة عليها وترويضها، إذا كنا نريد ألّا يتحول العالم إلى غابة. إذا كنا نريد تجنب أن يشبه المستقبل أسوأ صور الماضي، وإذا كنا نريد تجنبِ أن يصبح أطفالنا، بعد خمسين عاماً أو مئة عام، مضطرين لأن يشهدوا، مثلنا نحن العاجزين، المذابح وعمليات الطرد وتطهيرات أخرى، أن يشهدوها وأن يخضعوا لها أحياناً.

لقد فرضت على نفسي، كلما استشعرت ضرورة لذلك، أن أذكر الوسائل التي يمكن بوساطتها لجم الفهد. ليس لأني أمتلك حقائق تسمح لي بذلك. بل لأنني بعد أن انطلقت في هذه الدراسة يبدو اكتفائي بإطلاق الرغبات وإصدار الأوامر تصرفاً غير مسؤول. يجب أن أشير أيضاً، على مر الصفحات، إلى بعض السبل التي تبدو لي واعدة وبعضها الآخر الذي يبدو لي مسدوداً.

ومع ذلك فهذا الكتاب ليس دليلاً للأدوية. إذ فيما يتعلق بحقائق

على هذا القدر من التعقيد والتنافر لايمكن نقل أية صيغة كما هي من بلد إلى آخر. واستخدم كلمة «صيغة» عن عمد. فهي تتكرر في لبنان بلا توقف في المحادثات حول تحديد الترتيب الذي سيتم على أساسه توزيع السلطة بين مختلف الطوائف. منذ أيام شبابي أسمع حولي بالانكليزية والفرنسية وخاصة العربية كلمة «صيغة» وهي كلمة تذكّر بأعمال صياغة المجوهرات.

تستحق «الصيغة اللبنانية» لوحدها، بما فيها من خصوصية، توسعات مطوّلة، ولكني سأذكرها هنا على وجه التحديد بأقل ما فيها من خصوصية، وبأكثر ما فيها من نموذجي ومن كشفي. لن أقدم جرداً بالجماعات العشرين، التي مازالت تُدعى مذاهب، مع بياناتها الخاصة ومخاوفها القديمة وصراعاتها الدموية ومصالحاتها المدهشة، وإنما ببساطة الفكرة المؤسِسة التي يجب وفقاً لها ضمان احترام الحقوق بوساطة نظام محاصصة دقيق.

لكي أحدد طرحي بشكل أفضل أبدأ بالتساؤل التالي: عندما يشعر سكان بلد ما بالانتماء إلى جماعات مختلفة، دينية أو لغوية أو اثنية أو عرقية أو قبائلية أو غيرها، كيف يجب «إدارة» هذا الواقع؟ هل يجب أخذ هذه الانتماءات بعين الاعتبار؟ وإلى أية درجة؟ أم يُفضل تجاهلها؟ والتظاهر بأننا لانراها؟

إن جدول الإجابات واسع. والإجابة التي تخيَّلها مؤسسو لبنان الحديث تمثل بالتأكيد خياراً حديّاً. وهو يستحق الاحترام لاعترافه القاطع بالجماعات العديدة، ولكنه دفع بمنطق هذا الاعتراف حتى التطرف. كان يمكن أن يكون خياراً نموذجياً ولكنه أصبح مثالاً مضاداً. في جزء كبير منه بسبب حقائق الشرق الأوسط المعقدة، وفي جزء منه أيضاً بسبب عيوب الصيغة ذاتها وتصلبها وثغراتها وعدم تماسكها.

ومع ذلك هذا لايعني أن علينا رفض التجربة بمجملها. لقد بدأتُ

بقول «جديرة بالاحترام» لأنها أعطت موقعاً لكل جماعة بدلاً من ترك السلطة بكاملها لإحداها وهو أمر جدير بالاحترام، بما يحكم على الآخرين بالخضوع أو الزوال. وهي جديرة بالاحترام لأنها تخيلت نظاماً ذا توازنات دقيقة ساعد على ظهور الحريات وازدهار الفنون في منطقة تسود فيها الدول ذات الديانة الواحدة، والإيديولوجيا الواحدة أو الحزب الواحد أو اللغة الواحدة، وحيث الذين لم يسعدهم الحظ ولم يولدوا في الجهة المناسبة ليس لديهم من خيار آخر غير الخضوع أو النفي أو الموت. لكل هذه الأسباب أواصل وسأواصل القول إن التجربة اللبنانية، بغضّ النظر عن الإخفاقات، تبقى في نظري مشرّفة أكثر بكثير من غيرها من تجارب الشرق الأدنى وغيرها والتي لم تنتهِ إلى حرب أهلية أو لم تؤدِ إليها بعد، ولكنها بنت استقرارها النسبي على الكبت والقمع و«التطهير» الخفي والتمييز الفعلي.

لقد انطلقت الصيغة اللبنانية إذا من فكرة جديرة بالاحترام ومع ذلك انحرفت. وهو انحراف نموذجي لأنه يُظهر بوضوح محدوديات نظام الحصص وكل رؤية «طوائفية».

لقد كان الهم الأول «لمخترعي» الصيغة اللبنانية هو تفادي المواجهة بين مرشح مسيحي ومرشح مسلم أثناء الانتخابات كيلا تتعبأ كل طائفة عفوياً حول «ابنها»؛ وقد تبنوا حلاً يوزع مختلف المقاعد مسبقاً بطريقة ألّا تحدث المواجهة أبداً بين الطائفتين ولكن بين مرشحين ينتمون إلى الطائفة ذاتها. إنها فكرة ذكية وعاقلة نظرياً. مع ذلك، عندما بادروا إلى تطبيقها على كل مستويات السلطة من رئاسة الجمهورية إلى البرلمان والوظائف العامة فما حصل في الواقع هو أن كل مركز هام أصبح ملكاً لطائفة واحدة.

في شبابي صرخت كثيراً ضد هذا النظام الخاطئ، حيث لانختار بين مرشحَين إلى وظيفةٍ الأكفأ بينهما وإنما المرشح الذي لطائفته «الحق» بالمركز. اليوم أيضاً عندما تسنح لي الفرص أتصرف بالطريقة ذاتها. والاختلاف الوحيد هو أنه عندما كنت في

التاسعة عشرة من عمري كنت أريد استبدال أي شيء آخر بهذا النظام. في التاسعة والأربعين مازلت آمل برؤيته يُستبدل ولكن ليس بأي شيء.

وأنا أكتب ذلك أرنو قليلاً إلى ماهو أبعد من لبنان. إذا تكشّف أن النظام الذي قام فيه فاسد فلا أظن أننا نوشك أن نستخلص من هذه الحقيقة نتائج أكثر فساداً أيضاً. كأن نقدّر مثلاً أن المجتمعات ذات الطوائف المتعددة «غير مؤهلة للديمقراطية»، وأنها تحتاج نظاماً مفتول العضلات ليكون قادراً على الحفاظ على السلم الأهلي.

مازلنا نسمع هذا الخطاب في كثير من الأحيان حتى من بعض الديمقراطيين، هذا الخطاب الذي يدّعي الواقعية، رغم أن أحداث السنوات الأخيرة تناقضه. إن كانت الديمقراطية لاتنجح دائماً في حل الصراعات التي تدعى «اثنية» فلم يثبت أبداً أن الديكتاتورية قادرة على ذلك بشكل أفضل. هل أثبت النظام اليوغسلافي ذو الحزب الواحد أنه أكثر قدرة على الحفاظ على السلم الأهلي من التعددية الحزبية اللبنانية؟ قد يبدو المارشال تيتو، منذ ثلاثين سنة خلت، كأهون الشرين، لأن العالم ماكان يرى الشعوب المختلفة تتقاتل. ونكتشف اليوم أنه لم يتم حل أي مسألة أساسية بل على العكس.

ماحدث مؤخراً في معظم دول العالم الشيوعي السابق مازال ماثلاً في الأذهان بحيث يعفينا من استدلال مطول جداً. ولكن ربما لاجدوى من التشديد على واقع أن السلطات التي تمنع كل حياة ديمقراطية تساعد في الحقيقة على تقوية الانتماءات التقليدية. عندما يستقر الشك في قلب مجتمع ما فإن التضامنات الوحيدة التي تبقى صامدة هي أكثرها عمقاً، وعندما تكون كل الحريات السياسية أو النقابية أو الأكاديمية مقيدة، تصبح أماكن العبادة الأماكن الوحيدة حيث يمكن للناس أن يتجمعوا ويناقشوا ويشعروا أنهم متحدون في مواجهة الخصومة. كثير من الناس دخلوا الفلك السوفييتي بروليتاريين وأمميين وخرجوا منه أكثر تديناً وقومية من أي وقت مضى. مع مرور الزمن يتبدى أن الديكتاتوريات التي تدّعي

العلمانية هي مناجم التعصب الديني. إن العلمانية دون ديمقراطية هي كارثة على الديمقراطية والعلمانية معاً.

ولكني أتوقف هنا، لماذا الإسهاب حول هذا التفنيد؟ على أية حال إن من يتطلع إلى عالم من الحرية والعدالة لايرى في الديكتاتورية حلاً مقبولاً، دون أن نحتاج حتى إلى مناقشة خاصة حول عجزها الواضح عن حل المسائل المرتبطة بالانتماء الديني والاثني وبالهوية. لايمكن للاختيار أن يتم إلا في إطار الديمقراطية.

غير أنني بقول هذا لاأكون قد حققت تقدماً هاماً. إذ لايكفي أن أقول «ديمقراطية» لكي يستقر التعايش المتناغم. فهناك فرق بين ديمقراطية وأخرى، والانحرافات هنا لاتقل فتكاً عن انحرافات الديكتاتوريات. سبيلان يبدوان لي خطرين بشكل خاص على التنوع الثقافي وعلى احترام المبادئ الأساسية للديمقراطية ذاتها: أولهما بالتأكيد ديمقراطية نظام الحصص مدفوعاً حتى العبث، والخيار المعاكس، أي ديمقراطية نظام لايحترم إلا قانون العدد دون أي رادع.

والنموذج اللبناني هو من أبرز الأمثلة تعبيراً عن السبيل الأول، وإن لم يكن الوحيد. إذ تتقاسم الطوائف السلطة، بشكل مؤقت كما يقولون، على أمل تخفيف التوترات، مع وعد بأن يدفعوا الناس تدريجياً نحو شعور بالانتماء إلى «المجتمع الوطني». ولكن منطق النظام يذهب في اتجاه آخر تماماً: بما أن هناك اقتساماً «لقالب الحلوى»، تميل كل طائفة إلى اعتبار أن حصتها ضئيلة جداً وأنها ضحية ظلم فاضح، وبعض السياسيين يجعلون من هذا الإحساس موضوعاً دائماً لدعايتهم.

وشيئاً فشيئاً يصبح القادة الذين لايستسلمون للمزاد مهمشين، فيقوى عندئذ شعور الانتماء إلى قبائل مختلفة بدلاً من أن يضعف، وينحسر شعور الانتماء إلى درجة الاختفاء، أو يكاد. دائماً بمرارة

وأحياناً عبر حمام من الدم. إذا كنا في أوروبا الغربية فبلجيكا هي المثل، وإذا كنا في الشرق الأوسط فالمثال هو لبنان.

إني أبسّط الأمور قليلاً ولكنه السيناريو الذي نتجه صوبه عندما نتجاوز في معالجتنا للقضايا الاثنية حداً ما، وهو الحد الذي يحوِّل الانتماءات الطائفية إلى هويات بديلة بدلاً من جمعها في هوية وطنية يعاد تحديدها وتوسيعها.

إن الاعتراف بعدد من الانتماءات اللغوية والدينية والإقليمية في قلب جماعة وطنية قد يخفف التوترات في كثير من الأحيان، ويصحح العلاقات بين مختلف فئات المواطنين، ولكنها عملية حساسة لانستطيع خوضها كيفما اتفق لأن قليلاً من الأشياء يكفي ليحدث عكس التأثير الذي كنا نأمله. يريدون تسهيل اندماج جماعة أقلية فنكتشف بعد عشرين عاماً أننا حشرناها في غيتو لاتتمكن من الخروج منه. وبدلاً من تنقية الأجواء بين مختلف جماعات المواطنين، نؤسس لنظام من المزايدات والاحتجاجات والمطالب المشاكسة التي لايمكنها أن تتوقف مع سياسيين جعلوا منها علة وجودهم ورأسمال تجارتهم.

كل ممارسة تمييزية خطيرة حتى عندما تُمارس لصالح جماعة عانت. ليس فقط لأننا بهذه الطريقة نستبدل ظلماً بآخر ونقوّي الكراهية والشك، وإنما من أجل قضية مبدأ أخطر في نظري أيضاً: طالما يتعلق مركز شخصية ما في المجتمع بانتمائه إلى هذه الطائفة أو تلك، نساهم في استمرار نظام منحرف لايستطيع إلّا أن يعمق الانقسامات. إذا كنا نسعى إلى تقليص التفاوتات والمظالم والتوترات العرقية أو الاثنية أو الدينية أو غيرها، فالهدف المنطقي الوحيد والمشرِّف هو أن نعمل لكي يُعامل كل مواطن بوصفه مواطناً كامل الحقوق مهما كانت انتماءاته. بالطبع لايمكن بلوغ مثل هذا الأفق بين ليلة وضحاها ولكنه ليس سبباً لنَقود القافلة في الاتجاه المعاكس.

5

لقد أدت انحرافات نظام المحاصصة و«الطوائفية» إلى الكثير من المآسي في مناطق مختلفة من، العالم لدرجة أنها تبدو تسوغ الموقف المعاكس أي الموقف الذي يفضّل تجاهل الاختلافات واللجوء، في كل شيء، إلى حكم الأغلبية المعروف بأنه لايخطئ.

للوهلة الأولى يبدو أن هذا الموقف يعكس المنطق الديمقراطي الصرف: لانريد أن نعرف إن كان بين المواطنين مسلمون، يهود، مسيحيون، سودٌ، آسيويون، إسبان، والونيون، فلمنديون.

فكل منهم له صوته في الانتخابات وليس هناك من قانون أفضل من الاقتراع العام. المزعج في هذا القانون المحترم هو أنه يكف عن العمل بشكل صحيح ما أن تتلبد الأجواء. في ألمانيا، في بداية العشرينات، كان الاقتراع العام يفيد في تشكيل تكتلات حكومية تعكس حالة الرأي العام، وأدت ممارسة هذا الاقتراع العام ذاته في بداية الثلاثينيات، في جو أزمة اجتماعية حادة ودعاية عنصرية، إلى إلغاء الديمقراطية؛ وعندما تمكن الشعب الألماني من التعبير عن نفسه من جديد بطمأنينة كان قد سقط عشرات الملايين من القتلى. إن قانون الأكثرية ليس دائماً مرادفاً للديمقراطية والحرية والمساواة، أحياناً يكون مرادفاً للتسلط والاستعباد والتمييز.

عندما تكون أقلية ما مضطهدة فإن الاقتراع الحر لايحررها

بالضرورة، بل قد يسيء إلى وضعها أكثر. لابد أن يكون المرء ساذجاً جداً، أو على العكس وقحاً جداً، لكي يدافع عن فكرة أن ترك السلطة لفئة أكثرية يقلص من عذابات الأقليات. في رواندا يُقدّر أن الهوتو يمثلون تقريباً تسعة أعشار السكان والتوتسي عشرهم. لذلك سيكون الاقتراع الحر مجرد فرز اثني، كما أن السعي إلى تطبيق قانون الأغلبية دون أي رادع سيؤدي حتماً إلى مذبحة أو إلى قيام ديكتاتورية.

لم أذكر هذا المثل بالمصادفة. فعندما نهتم عن قرب بالجدال السياسي الذي رافق مذابح 1991 نتبين أن المتعصبين ادَّعوا دائماً أنهم يتصرفون باسم الديمقراطية، ويصل بهم الأمر إلى حد أنهم يشبّهون انتفاضتهم بالثورة الفرنسية 1789، وإبادتهم للتوتسي بإزالة طبقة من أصحاب الامتيازات مثلما فعل روبسبيير وأصدقاؤه في زمنٍ سادت فيه المقصلة. وقد سمح بعض الكهنة الكاثوليك لأنفسهم بالاقتناع أنه يجب الوقوف إلى «جانب الفقراء» و«تفهم غضبهم» لدرجة أنهم أصبحوا شركاء في عملية قتل جماعي.

إن كانت مثل هذه المحاججة تقلقني فليس لأنها تسعى إلى إضفاء القيمة على تصرفات السفاحين الحقيرة، بل لأنها تُظهر أيضاً الطريقة التي يمكن من خلالها «تحويل» أنبل المبادئ عن مسارها. تُرتكب المذابح الاثنية دائماً تحت أجمل الذرائع، كالعدالة والمساواة والاستقلال وحقوق الشعب، والديمقراطية والكفاح ضد الامتيازات. ماحصل في العديد من الدول في السنوات الأخيرة يجب أن يجعلنا حذرين كلما استُخدم مفهوم ذو طابع عالمي في إطار صراع ذي طبيعة تتعلق بالهوية.

تشكل بعض الجماعات البشرية التي تعاني من التمييز العنصري أغلبية في بلادها، مثلما كانت الحال في أفريقيا الجنوبية حتى تم إلغاء التمييز العنصري Apartheid. ولكن العكس هو مايحدث في أغلب الأحيان، فالأقليات هي التي تعاني، وهي المحرومة من أبسط

حقوقها، وهي التي تعيش دائماً في الخوف والمهانة. إذا كنا ... في بلد يخشى فيه المرء من الاعتراف بأن اسمه بيير أو محمود أو باروخ وذلك منذ أربعة أجيال أو أربعين جيلاً، وإذا كنا نحيا في ... حيث لايحتاج المرء حتى إلى القيام بمثل هذا الاعتراف لأن وجهه يحمل لون انتمائه، ولأنه جزء ممن يدعونهم في بعض الدول «أقليات ... مرئية»، فلن نحتاج عندها إلى شروحات مطولة لكي نفهم أن كلمات «أغلبية» و«أقلية» لاتنتمي دائماً إلى مفردات الديمقراطية.

لكي نتمكن من التحدث عن الديمقراطية يجب أن تدور النقاشات في جو من الطمأنينة النسبية. ولكي يكتسب الانتخاب معنى يجب أن يحل الاقتراع وفقاً للرأي، كتعبير حر، مكان التصويت الآلي والتصويت الاثني والتصويت التعصبي والتصويت بناءً على الهوية. عندما نعيش في جو طوائفي أو عرقي أو توتاليتاري تصبح مهمة الديمقراطيين في كل أنحاء العالم، ليس أن يُبرزوا أفضليات الأغلبية، وإنما أن يجعلوا حقوق المقموعين محترمة وعند الحاجة ضد قانون العدد.

إن ماهو مقدس في الديمقراطية هو القيَم وليس الآليات. وما يجب احترامه بشكل مطلق ودون أدنى اجتزاء هو احترام البشر، كل البشر، نساءً ورجالاً وأطفالاً مهما كانت معتقداتهم أو لونهم، ومهما كانت أهميتهم العددية، ويجب أن يتكيف نمط الاقتراع مع هذه الضرورة.

إذا كان من الممكن ممارسة الاقتراع العام بحرية ودون أن يؤدي إلى الكثير من الظلم، فهذا جيد، وإلا فيجب تخيل الضوابط التي لجأت إليها كل الديمقراطيات الكبرى من وقت لآخر. ففي المملكة المتحدة، حيث يسود الاقتراع الأغلبي، استُحدِثت أنماط مختلفة لحل مسألة الأقلية الكاثوليكية في إيرلندا الشمالية، لاتأخذ في اعتبارها قانون العدد الجائر. في فرنسا، وُضع حديثاً من أجل كورسيكا، التي تطرح مسألة خاصة، نمط اقتراع محلي مختلف عما هو في بقية

البلد. وفي الولايات المتحدة يمثل ولاية رود أيلاند التي يسكنها مليون شخص عضوان في مجلس الشيوخ، وكذلك بالنسبة للثلاثين مليوناً الذين يقطنون كاليفورنيا. وفي ذلك تجاوز لقانون العدد الذي أدخله الآباء المؤسسون لكي يتجنبوا أن تسحق الولايات الكبرى الولايات الأضعف.

ولكني أود العودة بكلمة واحدة إلى أفريقيا الجنوبية. فقد رفعوا فيها حديثاً شعاراً يؤدي إلى الالتباس وهو شعار حكم الأغلبية أو حكومة الأغلبية. في إطار التمييز العنصري كان ذلك اختصاراً مفهوماً شرط أن نحدد، كما فعل بعض الرجال مثل نلسون مانديلا، أن الهدف ليس استبدال حكومة بيض بحكومة سود، أو استبدال تمييز بآخر، وإنما إعطاء كل المواطنين، مهما كان أصلهم، الحقوق السياسية ذاتها، وهم من هنا أحرار في أن يختاروا القادة الذين يريدون، سواء كانوا من أصل أفريقي أو أوروبي أو آسيوي أو مختلط.

ولاشيء يمنع من التفكير أنه يمكن يوماً ما انتخاب زنجي لرئاسة الولايات المتحدة الأميركية، ورجل أبيض رئيساً لأفريقيا الجنوبية. ومع ذلك فمثل هذا الاحتمال لايبدو ممكناً إلا في نهاية عملية فعالة من التناغم الداخلي والتكامل والنضج، عندما يصبح بمقدور المواطنين أن يحكموا على المرشح من خلال صفاته الإنسانية وآرائه وانتماءاته الموروثة. ومن البديهي أننا لم نبلغ بعد هذا الحد، ولا في أي مكان في الحقيقة، لافي الولايات المتحدة ولا في أفريقيا ولا أي مكان آخر، صحيح أن الأمور تجري في بعض الدول أفضل مما هو في بعضها الآخر، ولكني عبثاً بحثت على خريطة العالم فلم أجد بلداً واحداً يختلف فيه الانتماء الديني أو الاثني لكل المرشحين عن ناخبيهم.

مازال يوجد بعض التصلب حتى في أعرق الديمقراطيات. يبدو لي أنه مازال صعباً اليوم أن يصل كاثوليكي إلى رئاسة الوزراء في

لندن. أما في فرنسا فلا يوجد أي رأي مسبق ضد الأقلية البروتستانتية التي يستطيع أعضاؤها، سواء كانوا مؤمنين أم لا، تسنّم أعلى الوظائف دون أن تأخذ عملية الانتخاب في اعتبارها شيئاً غير مؤهلاتهم الشخصية وآرائهم السياسية. وفي المقابل، فإن أيّاً من الدوائر الانتخابية الستمئة لم ينتخِب مسلماً إلى الجمعية الوطنية. يعكس الاقتراع في الواقع رؤية المجتمع لذاته ولمختلف مكوناته وقد يساعد في التشخيص، ولكنه لن يقدم وحده العلاج أبداً.

ربما كان علي الامتناع عن ذكر حالات لبنان ورواندا وأفريقيا الجنوبية أو يوغسلافيا السابقة بشكل موسع. فالمآسي التي أدمتها على مدى العقود الماضية، استأثرت بالأحداث لدرجة أن كل التوترات الأخرى قد تبدو بالمقارنة بسيطة وحتى تافهة. ومع ذلك هل يجب أن أكرر أنه لايوجد اليوم بلد واحد نستطيع فيه الامتناع عن التفكير بالطريقة التي تسمح بتعايش شعوب مختلفة سواء كانت محلية أو مهاجرة. يوجد توترات في كل مكان، قد تكون محتواة بمهارة بدرجة ما، وتميل عموماً إلى الاشتداد. علاوة على أن المسألة تُطرح في أغلب الأحيان على عدة مستويات معاً؛ ففي أوروبا مثلاً، كل الدول تعاني من مشاكل إقليمية أو لغوية في الوقت ذاته، ومن مسائل مرتبطة بوجود جماعات مهاجرة، وكذلك من مشاكل «قارية» أقل حدة اليوم، ولكنها ستتجلى مع تزايد الاندماج بين دول الاتحاد، لأن الأمر يتطلب تنظيم «الحياة المشتركة» لعشرين أو ثلاثين أمة لكل منها تاريخها ولغتها وحساسياتها الخاصة.

بالتأكيد يجب الحفاظ على الحس النسبي. إذ لايشير كل ارتفاع في الحرارة إلى الطاعون، ولكن يجب ألا نتعامل مع أي ارتفاع في الحرارة بشكل لامبالٍ. ألا نقلق أيضاً لانتشار الزكام؟ ألا نتابع دائماً تطور الفيروس؟

من البديهي أن كل المرضى لايتطلبون العلاج ذاته. قد يتطلب

الأمر في بعض الحالات ضوابط مؤسساتية، وقد يتطلب أحياناً بالنسبة لبعض الدول ذات السوابق الخطيرة، مراقبة فاعلة من جانب الجماعة الدولية لمنع المذابح والتمييز والحفاظ على التنوع الثقافي. بالنسبة لمعظم الآخرين تكفي ضوابط أكثر لطافة، ترمي خاصة إلى إصلاح المناخ الاجتماعي والفكري. ولكننا نشعر في كل مكان بضرورة تفكير رصين وشامل حول الطريقة المثلى لترويض وحش الهوية.

خاتمة

لن يفاجأ الذين تابعوا تسلسل أفكاري إلى هذا الحد إذا علموا أنها تنطلق من فكرة مركزية، وهي أن يتمكن كل شخص من التماهي، ولو قليلاً، مع البلد الذي يحيا فيه ومع عالمنا اليوم. وهذا يعني عدداً من السلوكيات والعادات التي يجب على كل فرد أن يكتسبها، وكذلك محاوريه أفراداً وجماعات.

يجب تشجيع كل منا على الاضطلاع بتنوعه الخاص وإدراك هويته بوصفها حصيلة انتماءاته المختلفة، بدلاً من اختزالها إلى انتماء واحد يُنَصَّب عُلوياً وأداة استعباد وأداة حرب أحياناً. يجب على كل الذين لاتلتقي ثقافتهم الأصلية بثقافة المجتمع الذي يعيشون فيه أن يتمكنوا من الاضطلاع بانتمائهم المزدوج دون الكثير من التمزقات، والحفاظ على انتمائهم إلى ثقافتهم الأصلية، وألا يشعروا أنهم مُجبَرون على إخفائها كمرض مخزٍ، والانفتاح بالتوازي على ثقافة البلد المضيف.

بصياغته على هذا النحو يبدو هذا المفهوم وكأنه يخص المهاجرين بشكل أساسي. ولكنه يخص أيضاً الذين يحافظون على علاقة وجدانية مع ثقافتهم الأصلية، رغم أنهم عاشوا دائماً في كنف المجتمع ذاته، وأعني من بين الذين أعنيهم، زنوج أميركا الذين تُفصح تسميتهم، «الأميركيون الأفارقة»، عن انتمائهم المزدوج. هذا المفهوم يخص أيضاً كل الذين يشعرون أنهم مختلفون لأسباب دينية

أو اثنية أو اجتماعية أو غيرها في الوطن الوحيد الذي انتموا إليه أبداً. أن يتمكن الجميع من عيش انتماءاتهم المختلفة، ضروري من أجل تفتحهم وكذلك من أجل السلم الأهلي.

بالطريقة ذاتها يجب أن تضطلع المجتمعات أيضاً بانتماءاتها المتعددة التي شكلت هويتها والتي مازالت تصقلها، ويجب أن تَجهد لتُظهر من خلال رموز مرئية أنها تضطلع بتنوعها لكي يتمكن كل فرد من التماهي مع مايراه حوله، ويتمكن من التعرف على نفسه في صورة البلد الذي يحيا فيه، ويشعر بالتشجيع على الانخراط فيه بدلاً من بقائه، كما في أغلب الحالات، مشاهداً قلقاً ومعادياً أحياناً.

بالطبع، ليس لكل الانتماءات التي يعترف بها بلد ما الأهمية ذاتها. لايتعلق الأمر بادعاء المساواة كواجهة لاتُعبّر عن شيء، وإنما بتأكيد مشروعية التعبيرات المتنوعة. على سبيل المثال لاشك أن فرنسا، من وجهة النظر الدينية، بلد يعتبر الكاثوليكية تقليده الأساسي، وهو ما لايمنعه من الاعتراف بأن له أيضاً بعداً بروتستانتياً وبعداً يهودياً وبعداً مسلماً، وبعداً فولتيرياً شديد الحذر من كل دين؛ كلٌ من هذه الأبعاد، والقائمة غير محدودة، لعب ويلعب دوراً ملحوظاً في حياة البلد وفي إدراكه العميق لهويته.

من جهة أخرى، من المؤكد أن اللغة الفرنسية تمتلك هي أيضاً هوية ذات انتماءات متعددة؛ أولاً اللاتينية، نعم، وكذلك الجرمانية والسلتية، مع بعض المساهمات الأفريقية والأنتيلية والعربية والسلافية، إضافة إلى مساهمات أخرى أكثر حداثة تُغْنيها دون أن تغيرها بالضرورة.

لم أذكر هنا إلا حالة فرنسا مع العلم إنني كنت أستطيع التوسع حولها أكثر بكثير. بديهي أن لكل مجتمع صورته الخاصة،الفريدة جداً، عن ذاته وهويته. بالنسبة لدول العالم الجديد، وخاصة الولايات المتحدة، لايطرح الاعتراف بأن هويتها مصنوعة من انتماءات متعددة أية أزمات من حيث المبدأ، بما أنها تشكلت بمساهمات المهاجرين الذين أتوا من كل القارات. ولكن لم يصل

جميع النازحين في الظروف ذاتها. بعضهم كان يبحث عن حياة أفضل، وبعضهم الآخر اختُطف واقتيد إليها رغماً عنه. وبعد صيرورة طويلة، طويلة وصعبة جداً، لم تنته بعد، سيتمكن كل المهاجرين وكذلك المتحدرين من الشعب الذي كان يعيش فيها أصلاً، في العصر قبل الكولومبي، من التماهي تماماً مع المجتمع الذي يعيشون فيه. ولكن التنفيذ هو المسألة هنا وليس مبدأ التنوع.

وتُطرح مسألة الهوية الوطنية بشكل مختلف في بلدان أخرى. ففي أوروبا الغربية التي أصبحت بحكم الواقع أرض هجرة دون أن تعتبر نفسها مخصصة لذلك، ماتزال بعض الشعوب تجد صعوبة في إدراك هويتها دون الاستناد حصراً إلى ثقافتها الخاصة. ويصح ذلك بشكل خاص على الذين تم تقسيمهم أو حرمانهم من استقلالهم لفترة طويلة، إذ يرون أن الاستمرارية عبر التاريخ لم تؤمنها دولة أو أرض قومية بل الروابط الثقافية أو الاثنية. وهذا يعني أن أوروبا بمجملها، بقدر ما تميل إلى الوحدة، عليها أن تدرك هويتها بوصفها حصيلة كل الانتماءات اللغوية والدينية وغيرها. إن لم تضطلع بكل عنصر من عناصر تاريخها، ولم تقل بوضوح لمواطنيها المستقبليين أن عليهم أن يشعروا أنهم أوروبيون تماماً، دون أن يكفوا عن كونهم ألماناً أو فرنسيين أو إيطاليين أو يونانيين، فلن تتمكن من البقاء بكل بساطة.

إن بناء أوروبا جديدة هو صياغة مفهوم جديد للهوية، لها ولكل دولة تؤلفها، ونوعاً ما لبقية العالم أيضاً.

فيما يتعلق بهذا المثال وكذلك بالمثال الأميركي وأمثلة كثيرة أخرى، سيكون هناك الكثير والكثير مما يمكن قوله، ولكني أقاوم إغراء الدخول في التفاصيل لأكتفي بأن أذكر ببساطة جانباً أراه مهماً من جوانب «عمل» الهوية: بدءاً من الوقت الذي يلتزم فيه الفرد ببلد أو مجموعة من الدول كأوروبا الموحدة، لايستطيع إلا أن يستشعر بعض القرابة مع كلٍ من العناصر التي تكونه. بالتأكيد يحافظ على علاقة خاصة جداً بثقافته الخاصة وعلى بعض

المسؤولية تجاهها، ولكن هناك أيضاً علاقات تُنسج مع مكونات أخرى. منذ اللحظة التي يشعر فيها بيامونتي أنه إيطالي يصبح مهتماً بتاريخ ڤينيسيا ونابولي، حتى ولو كان يحتفظ بحنين خاص تجاه تورينو وماضيها. وبالطريقة ذاتها، بقدر مايشعر هذا الإيطالي أنه أوروبي تصبح لامبالاته تجاه امستردام ولوبك أقل فأقل. قد يستغرق الأمر جيلين أو ثلاثة، وقد يستغرق وقتاً أطول بالنسبة لبعضهم، إلّا أنني أعرف شباناً أوروبيين بدؤوا يتصرفون وكأن القارة بكاملها وطنهم وكل سكانها مواطنوهم.

أنا الذي أتبنى كلاً من انتماءاتي بأعلى صوتي لاأستطيع الامتناع عن الحلم بيوم تسلك فيه المنطقة التي ولدت فيها الطريق ذاته، تاركة خلفها زمن القبائل وزمن الحروب المقدسة وزمن الهويات القاتلة لكي تبني شيئاً مشتركاً، أحلم بيوم أستطيع فيه أن أنادي الشرق الأوسط بمثل ما أدعو به لبنان وفرنسا وأوروبا: «بلدي»، وكل أبنائه مسلمين ويهوداً ومسيحيين من كل المذاهب وكل الأصول، مواطنيّ. تلك هي الحال في رأسي الذي يتأمل ويتوقع باستمرار، ولكني أود أن يصبح الأمر كذلك يوماً ما على أرض الواقع وللجميع.

أنهي هذا الاستطراد على مضض لأعود إلى طرحي الأوّلي، وأكرر على المستوى الشامل ماقلته بخصوص كل بلد: يجب التصرف بشكل ألّا يشعر أي شخص أنه مستبعد عن الحضارة المشتركة التي تولد حالياً، وأن يتمكن كل شخص من إيجاد لغة فيها هويته وبعض رموز ثقافته الخاصة، وأن يتمكن من التماهي، ولو قليلاً، بما يراه ينبثق في العالم الذي يحيط به، بدلاً من البحث عن ملجأ في ماض يظنه مثالياً.

وبموازاة ذلك يجب أن يتمكن كل فرد من إدراج مكوِّنٍ جديد، فيما يقدِّر أنه هويته، مكوِّنٍ مرشح لاكتساب المزيد من الأهمية في القرن القادم والألفية الجديدة، وهو شعور الانتماء أيضاً إلى المغامرة الإنسانية.

هذا ما أردت قوله تقريباً بخصوص الرغبة بالهوية وانحرافاتها القاتلة. إن كنت أهدف إلى استيفاء المسألة حقها فما زلت في البدايات. إذ كنت أرغب. عند كل مقطع كتبته، بإضافة عشرين مقطعاً آخر. وعندما أعدت قراءة ما كتبت، لم أكن واثقاً من أنني حصلت في هذه الصفحات على النبرة المطلوبة، لا باردة جداً ولاملتهبة بشدة، أو على الحجج الجيدة للإقناع، أو الصيغ الأكثر عدالة. ولكن لايهم، أردت فقط أن أطلق بعض الأفكار، وأن أقدِّم شهادة وأستثير تفكيراً حول مواضيع تشغلني منذ القِدَم، وبشكل متزايد، كلما تفحصت هذا العالم الرائع جداً والمحيّر جداً والذي قُدِّر لي أن أولد فيه.

عادةً، عندما يصل الكاتب إلى الصفحة الأخيرة، تكون أمنيته الأغلى أن يبقى كتابه مقروءاً بعد مئة عام، أو مئتي عام. بالطبع لايمكن التكهن بذلك أبداً. هناك كتب نريدها أبدية ولكنها تموت في الغد. في حين يبقى كتاب آخر حياً رغم أننا نظنه تسلية لتلميذ. ولكننا نأمل دائماً.

بالنسبة لهذا الكتاب، وهو ليس تسلية ولاعملاً أدبياً، أتقدم بأمنية معاكسة: أن يكتشفه حفيدي عندما يصبح رجلاً، في مكتبة العائلة بالمصادفة، فيقلّبه ويتصفحه قليلاً ثم يعيده إلى المكان المغبر الذي سحبه منه، ويهز أكتافه مستغرِباً أنه في زمن جده كانت هناك حاجةٌ بعد لقول مثل هذه الأشياء.